أثر مكة والحج
في ثقافة وأدب شبه القارة الهندية

د. سمير عبدالحميد إبراهيم

(١)

مكانة مكة المكرمة في قلوب مسلمي شبه القارة الهندية

مكة المكرمة، المدينة المقدسة، مكرمة بالبيت، مقدسة بالبيت، الذي هو أول بيت وضع للناس، البيت الحرام، بيت الإنسانية من لدن آدم إلى قيام الساعة، لقد كرم الله مكة فجعلها مكاناً لهذا البيت.. ﴿**إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة**﴾..

مكة المكرمة نالت العزة والفخر، ونالت مكانتها وثروتها بدعاء خليل الله، فظلت بلداً آمناً، وظل رب الخلق يرزق أهله من الثمرات، فأهله هم أهل الله، وهم مطعمون من جوع وآمنون من خوف.. فمنذ أذّن الخليل بالحج، انطلقت دعوته عبر الزمن من لحظة وقف على جبل أبي قبيس إلى أن تقوم الساعة.. وما من لحظة في ليل أو نهار إلا وهناك متجه إلى هذا البيت، أو من يستعد للقدوم إليه، أو من يتوجه إليه راكعاً وساجداً.

كم من صفحات كتبت عن فضائل هذا البلد! وكم من عالم كتب عن فضائل هذا البلد! ناهيك عما كتب عن البيت الحرام وعن كل ما حوله: عن مقام إبراهيم، وعن الحطيم، وعن الميزاب، وعن زمزم، وعن غيرها.

اهتم علماء الهند بتشجيع

المسلمين على أداء فريضة الحج، وأكثر من هذا قاموا بتشجيعهم على الهجرة إلى مكة المكرمة طلباً للعلم، بل طلباً للموت والدفن في ترابها، وهكذا كتبوا المؤلفات الكثيرة عن فضل السكنى بمكة، وحب الرسول إياها[1].

وهكذا اهتم العلماء والأدباء في شبه القارة بمكة وبالأماكن المأثورة فيها، وحرصوا على زيارتها والكتابة عنها وبيان مشاعرهم وأحاسيسهم، فقد كان مولد الرسول الأمين في شعب أبي طالب المعروف اليوم بشعب علي، والذي تحول إلى مكتبة مكة، وهناك بيت السيدة خديجة الذي تحول إلى مدرسة البنات

لقد شجع العلماء في الهند المسلمين الهنود على الذهاب إلى مكة المكرمة، البلدة التي هي خير بلدة على وجه الأرض، وأحبها إلى الله ورسوله، والتي يكتب لمن يصلي فيها ركعة واحدة مائة ألف صلاة، والتي يكتب لمن صام رمضان فيها مائة ألف شهر رمضان، والتي يكتب لمن تصدّق فيها بدرهم واحد مائة ألف ما يكتب لمن تصدّق في غيرها، والتي فيها شراب الأبرار وطعام طُعم..

وهكذا اهتم العلماء والأدباء في شبه القارة بمكة وبالأماكن المأثورة فيها، وحرصوا على زيارتها والكتابة عنها وبيان مشاعرهم وأحاسيسهم، فقد كان مولد الرسول الأمين في شعب أبي طالب المعروف اليوم بشعب علي، والذي تحول إلى مكتبة مكة، وهناك بيت السيدة خديجة الذي تحول إلى مدرسة البنات، وهناك غار حراء، وقمة جبل حراء، ومسجد الجن، ومسجد الشجرة، وغار ثور، ومسجد العقبة، ومسجد الفتح، ومسجد التنعيم، ومسجد ذي طوى في جرول، ومسجد النور، ومسجد الراية وغيرها[2].

(٢)

أثر مكة المكرمة على سلاطين شبه القارة وعلمائها:

غياث الدين أعظم شاه البنغالي:

كان بين الهند وأرض الحرمين علاقات خاصة ومتميزة، فقد كانت قلوب أهل الهند ـ حكاماً ومحكومين ـ تتوق إلى أرض الحرمين، كما كانوا يأملون في نيل الثواب من الله بإكرامهم للمدينة المقدسة وأهلها، فها هو غياث الدين أعظم شاه، وهو من أعظم سلاطين ألياس شاه في البنغال وأشهرهم[٣] يرسل الهبات والهدايا إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وأهم من هذه الهبات والهدايا إرساله بمال لعمارة مدرستين: مدرسة بمكة ومدرسة بالمدينة وشراء عقار يوقف عليهما، وقد ذكر ذلك كثير من المؤرخين، وعلى رأسهم قطب الدين النهروالي (الذي سنذكره فيما بعد) في كتابه تاريخ مكة الذي سماه: الإعلام بأعلام بيت الحرام، لكنه اشتهر باسم تاريخ قطبي أو تاريخ مكة[٤].

ومما ورد في تاريخ مكة: أن السلطان غياث الدين أعظم شاه قام بتأسيس مدرسة في مكة المكرمة وأقام رباطاً للمسافرين، كما جعل هناك وقفاً لأعمال الخير والرعاية[٥] وقد ذكر علي آزاد بلكرامي أيضاً ـ نقلاً عن تاريخ مكة ـ في كتابه (خزانة عامرة) المدرسة التي أقامها السلطان غياث الدين ولخص العبارة الأصلية هكذا:

«أقام المدرسة واشترى الأملاك غير المنقولة في وادي مُر مع أحد الأنهار والممتلكات وجعلها وقفاً على المدرسة».

أما قاضي القضاة تقي الدين الفاسي (متوفى ٨٣٢ هـ/ ١٤٢٨م) في كتابه شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام، فقد ذكر السلطان غياث الدين أيضاً[٦].

وعلى كل حال، «كان ابتداء عمارة المدرسة بمكة المكرمة في شهر

رمضان سنة ثلاث عشرة وثمانمائة، ولم تنقض هذه السنة حتى فرغ من عمارة سفلها وغالب علوها، وكملت عمارتها في النصف الأول من سنة أربع عشرة وثمانمائة، وفي جمادي الآخرة منها ابتدأ فيها التدريس في المذاهب الأربعة، وكان وقفها في الحرم من هذه السنة، وكان شراء الوقف و موضع المدرسة باثني عشر ألف مثقال ذهباً، وكان المتولي لشراء هذا الوقف والمدرسة خادم السلطان المذكور برقوق الحبشي، وهو الذي تولى تفرقة صدقة السلطان بمكة في سنة ثلاث عشرة و ثمانمائة، ووقف المذكور على مصالح مكة داراً مقابلة لها اشتراها بخمسمائة مثقال وعمّرها في سنة أربع عشرة...»[٧].

كان بين الهند وأرض الحرمين علاقات خاصة ومتميزة، فقد كانت قلوب أهل الهند ـ حكاماً ومحكومين ـ تتوق إلى أرض الحرمين، كما كانوا يأملون في نيل الثواب من الله بإكرامهم للمدينة المقدسة وأهلها

وتذكر المصادر التاريخية (غلام علي آزاد بلكرامي في خزانه عامره) أن السلطان أرسل مع ياقوت المذكور ثلاثين ألف مثقال ذهباً لإصلاح مجرى مياه «عرفة»، وتسلم شريف مكة حسين بن عجلان المبلغ، لكنه استخدمه في إصلاح نهر آخر (نهر بازان) وخزانين للمياه في مكة.

السلطان محمود شاه الگجراتي:

يعد السلطان محمود شاه، الذي تولى الحكم سنة ٨٦٣هـ ـ ١٤٥٨م وحكم خمسة وخمسين عاماً، من أشهر حكام الأسرة الحاكمة في الگجرات[٨]، كان مسلماً ورعاً، أقام صناعات كثيرة وازدهرت البلاد في عهده، قدم عليه أبوالقاسم بن أحمد المكي المعروف بابن فهد ومعه فتح الباري بخط أبيه وعمه، وقدّمه إليه فأكرمه[٩]، وكان بينه وبين السلطان قانصوه الغوري علاقات سياسية وعسكرية، وقد تولى من بعده ابنه مظفر الحليم الگجراتي، وكان من حفظة القرآن ومن المحدثين الفقهاء

وماهراً في فن الخط بجميع أنواعه فكتب مصحفين بيده، وأرسلهما إلى الحرمين الشريفين[١٠]، وقد كتبهما بالخط الثلث بماء الذهب، وخص بهما إمام الحنفية، وجعل لهما وقفاً يصرف لمن يقوم على حفظهما، ومن يدعو له عند ختمهما، وللسقاء الذي يسقي القراء وللفراش كذلك، وكان محافظاً على الوضوء والصلاة في جماعة[١١].

ومن برّه لأهل الحرمين، أنه كان يرسل لهم العطايا والأقمشة، كما أنشأ في مكة رباطاً ومدرسة وسبيلاً للماء، وجعل لهما وقفاً يرسل إلى مكة ينفق على المدرّسين والطلبة ومن يقيم في الرباط[١٢].

السلطان شير شاه السوري:

ومن حكام الهند أيضاً شير شاه السوري الذي جلس على عرش آكرا (بكاف فارسية) في رجب ٩٤٧هـ ـ ١٥٤٠م[١٣]، وقد قام شير شاه السوري بتخصيص سفينتين كبيرتين لنقل الحجاج كل عام مجاناً، وكان بيت المال يتحمل تكاليف سفر أولئك الحجاج[١٤]، كما كان حريصاً على تأمين طريق الحج فقد قال: «لو ساعدني الزمان أبعث برسالة إلى عظيم الروم (يقصد السلطان العثماني) وأسأله أن يركب بعساكره إلى بلاد الفرس، ونركب نحن من هنا إلى تلك البلاد، فندفع بمساعدة ملك الروم شر الأوباش الذين يقطعون طريق الحجاج، ونحدث شارعاً آمناً إلى مكة المباركة»، لكن الأجل لم يمهله فمات قبل أن يحقق أمله[١٥].

الامبراطور جلال الدين أكبر:

وهكذا يفهم أن الأوربيين كانوا يعرقلون سفر الحجاج الهنود إلى مكة المكرمة، مما دفع الحكام المسلمين إلى التصدي لهم، ومن أمثلة هذه الحوادث ماقام به الامبراطور جلال الدين أكبر حين زحف على منطقة الگجرات سنة ٩٨٠هـ/ ١٥٧٢م، ووصل إلى مدينة «سورت»[١٦]، حيث أسس البرتغاليون بها مركزاً لتجارتهم وحاميةً من الجند تحميهم، وقد تصالح هؤلاء معه و عقدوا

معاهدة تعهدوا فيها بتيسير الحج إلى مكة، وعدم التعرض في البحر للحجاج المسلمين، وكانت مدينة «سورت» ميناء يبحر منه الحجاج، ولا يزال فيها للآن شارع يسمى «باب مكة»[١٧].

أما الامبراطور بهادر شاه ظفر ـ وكان أديباً وشاعراً ـ فهو آخر ملوك الدولة المغولية (البابرية) في شبه القارة، فقد نفاه الإنجليز من الهند إلى بورما بعد أن أحضروا إليه رؤوس أولاده داخل أطباق على صينية الطعام، فقد ظل يناجي ربه، ويبث ألمه إلى رسول الله شعراً:

«يا رسول الله! ما كانت أمنيتي إلا أن يكون بيتي هناك بجوارك..

لكنه أصبح في رنكون، وبقيت أمنياتي مدفونة في صدري..

يا رسول الله!

كانت أمنيتي أن أمرغ عيني في تراب أعتابك..

ولكن ها أنا أتمرغ في تراب رنكون..

وبدلاً من أن أشرب من ماء زمزم..

بقيت هنا أشرب الدموع الدامية..

فهل تنجدني يا رسول الله!

ولم يبق في حياتي سوى أيام معدودات».

وإذا ما تركنا الحكام إلى العلماء والدعاة، لاحظنا أن مكة المكرمة، كانت تبعث بعلمائها إلى شبه القارة، وكانت شبه القارة تعيدهم إليها تارة، أو ترد بإرسال علمائها إلى مكة تارة أخرى، ونسوق هنا مثالين أو أكثر:

أسرة مولانا أبي الكلام آزاد بين مكة والهند:

أبو الكلام آزاد هو محي الدين أحمد، وآزاد هو تخلّصه أو اسمه الأدبي، أسرته من الهند والحجاز، فجده هو مولانا محمد هادي من أسرة كلها علم وورع وتقوى، ووالدة آزاد هي ابنة أخت الشيخ محمد بن طاهر مفتي المدينة المنورة، وكان والده مولانا خير الدين قد قدم إلى مكة المكرمة وعاش فيها، ثم تزوج من ابنة هذه الأسرة التي تنتمي إلى

المدينة المنورة.

ويُذكر أنه حين توفى جد مولانا آزاد لأبيه، وترك ابنه «خير الدين» والد آزاد صغيراً، كفله جده لأمه ورباه تربية دينية، لكن الجد لم يطق المقام في دهلي وهو يرى أشلاء الدولة الإسلامية تتمزق، والإنجليز يتحكمون في كل شيء فاستقر رأيه على الهجرة بأسرته إلى مكة المكرمة، ليقضي فيها بقية حياته بجوار البيت الحرام.. وحين وصل إلى بهوبال في وسط الهند متجهاً إلى بومباي ليستقل الباخرة إلى جدة، استوقفته أميرة بهوبال «سكندر جهان بيغم»[١٨] استوقفته وأبقته نحو سنتين، لكنه توفى في بومباي، فواصل حفيده ـ ابن بنته والد آزاد ـ الرحلة إلى مكة المكرمة مع الأسرة، وكان في الخامسة والعشرين، وفي مكة بنى له داراً وتزوج ـ كما يذكر آزاد في مذكراته ـ من ابنة أحد علماء المدينة المعروفين وهو الشيخ محمد طاهر الوطري[١٩]، وفي سنة ١٣٠٦هـ ـ ١٨٨٨م ولد أبو الكلام آزاد الذي سماه أبواه محي الدين في محلة «قدوه» المتصلة بباب السلام بالحرم المكي، وكان أصغر أخوته وأخواته الخمس.

وهكذا ولد آزاد من أم حجازية وأب هندي تعرّب، فقد مكث والده في مكة نحو ثلاثين عاماً[٢٠]، وكان عالماً جليلاً ورجلاً تقياً ورعاً، له أثره وشهرته في مكة المكرمة وفي الهند وغيرها، وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية الأردية[٢١] أنه كان له مريدون في بومباي وكلكتا ورنكون، وأنّه كان يسافر كثيراً إلى الهند.

اشتهر مولانا خير الدين بجهوده في جمع الأموال التي أسهمت في ترميم نهر زبيدة سنة ١٢٩٥هـ / ١٨٧٨م[٢٢].

فصّل إبراهيم باشا في رحلته «مرآة الحرمين» الحديث عن نهر زبيدة، كما كتب عنه مولانا عبد المعبود في كتابه تاريخ مكة المكرمة (بالأردية)، ويذكر أبوالكلام آزاد «أن أباه حين كان في مكة لم تكن المياه تأتي أبداً في نهر زبيدة، ولو حدث وجرت فهي قليلة جداً، وكان عسكر شريف مكة يجلسون عليه يبيعون الماء بأسعار غالية، وفي تلك السنة انقطعت المياه تماماً في الحج وهلك آلاف الناس، وقد رأى والدي هذا المنظر بنفسه وقرر أن يصلح من شأن هذا الأمر من أجل موسم الحج القادم، وكان قد لفت نظر سلطان تركيا لهذا الأمر لكنه لم يجد منه أذناً صاغيةً، ولهذا بدأ يخاطب الناس في الهند، فطلب من صديقين له هما شهبندر التجار حاجي عبد الواحد وحاجي زكريا العون، فقدّما آلاف الروبيات، وقدم نواب الهند ورؤساؤها أيضاً المعونات، ومن حسن الحظ أن نواب كلب علي خان ونواب عبدالغني كانا ذاهبين للحج في تلك السنة، فذهب الوالد إليهم فتبرعا بأموال كثيرة.. كان هذا سنة ١٢٨٩هـ. / ١٨٧٣م، وقام الوالد بطبع نشرات بالعربية والأردية أرسلها إلى مصر والهند.. ولم تمض عدة أشهر حتى قدم المهندسون الهنود (عددهم ٨)، كما انتبهت الحكومة التركية وأرسلت مهندسين مصريين..».

وهكذا بدأ العمل في تطهير نهر زبيدة بعد أن شكل مولانا خير الدين لجنة من سبعة أشخاص تعمل تحت إشراف شريف مكة، وتم إصلاح جزء كبير من النهر لدرجة أن مشكلة المياه انتهت سنة ١٩٠٥م، وقد منحت الحكومة التركية مولانا خير الدين وساماً (الدمغة المجيدي من الدرجة الأولى).

وبينما تذكر دائرة المعارف الإسلامية الأردية أن أبا الكلام آزاد سافر وعمره عشر سنوات مع والديه

إلى كلكتا، التي ذهب إليها أبوه بناءً على رغبة مريديه وأحبابه، حيث توفي هناك عام ١٩٠٧م، وكان أبو الكلام آزاد وقتها يتكلم الأردية «المكسرة»، فقد توفيت والدته بعد وصوله كلكتا بسنة واحدة... يذكر الدكتور النمر أنه عاد إلى الهند بعد سنتين من ولادته، مستشهداً بما جاء في كتاب «الهند تكسب حريتها» لآزاد، وأشار الدكتور النمر نفسه إلى أن بعض المراجع الهندية الرسمية، تشير إلى أنه غادر مكة مع والده عام ١٨٩٨م[٢٣].

كما ينقل الدكتور النمر عن آزاد قوله: «وكان الداعي إلى عودته (أي والده) أنه سقط مرة في «جدة» فانكسرت ساقه ولم يجد من يرجعها إلى استقامتها، فأشار عليه أصدقاؤه بأن أطباء كلكتا يستطيعون علاجه.. فسافر للعلاج وكان عازماً على الرجوع إلى مكة بعد الانتهاء منه، لكن أتباعه ومريديه ألحوا عليه بالبقاء، ولم يدعوه يرجع إلى مكة.. وتوفيت والدتي بعد قدومنا كلكتا بسنة (أي عام ١٨٩١م) ودفنت في ترابها»[٢٤].

صبي مكة يطوّر لغة صحافة الهند:

درس أبو الكلام آزاد على يد أبيه مختصرات في كل علم، وبدأ قول الشعر وهو في الحادية عشر من عمره، ثم بدأ في نشر مقالات نثرية، وفي سنة ١٩٠٣م أصدر مجلة شهرية بعنوان «لسان الصدق»، وقد ألقى أول خطاب وعمره اثنا عشر عاماً، وقد ألقى خطاباً في جمعية حماية الإسلام بلاهور سنة ١٩٠٤م نال استحسان الجميع، وتعجب مولانا شبلي النعماني وأديب الأردية حالي، حين التقيا بهذا الفتى الذي هو مدير تحرير لسان الصدق... لقد شكلت نشأته في مكة المكرمة شخصيته العظيمة.

أصدر بعد ذلك مجلة الهلال الأسبوعية، فصارت مجلة فريدة في عموم الهند، ويذكر مولانا عبد الماجد الدريابادي أن الهلال «طلعت في سماء كلكتا سنة ١٩١٢م في الغالب حين استقر آزاد في كلكتا، لقد بدل آزاد

دنيا الصحافة، قلباً وقالباً، شكلاً ومضموناً، فاختلفت صحافته عن صحافة معاصريه، بإصدار هذه الصحيفة الأسبوعية التي سماها الهلال، وبالإضافة إلى الأسلوب، فقد جعلها صحيفة حية، مطبوعة على ورق جميل، ومحلاة بالصور الرائعة، وفي صفحة الغلاف الملونة كتب اسم المحرّر وهكذا: أحمد المكنى بأبي الكلام الدهلوي «ويذكر مولانا عبد الماجد أنهم ظلوا يبحثون في المعاجم والقواميس عن النطق الصحيح لكلمة المكنى وعن معناها أيضاً»[٢٥].

كانت نشأة آزاد في مكة المكرمة وتعلقه بلغة أمه اللغة العربية ذا أثر واضح على أسلوبه منذ البداية، وهكذا بدأ يدخل في لغة الصحافة التراكيب والتعبيرات العربية، ويجبر غيره على فهمها ومحاولة استخدامها، مما أثرى اللغة الأردية بتراكيب جديدة، فبدلاً من اديتر (اللفظ الإنجليزي) استخدم مدير مسؤول، كما استخدم محرر خصوصي، ورئيس قلم تحرير، واستخدم كلمة مجلة بدلاً من جريدة، واستخدم التركيب «بريد افرنك» بدلاً من «ولايتي داك» وهو التركيب الأردي المفهوم، واستخدم التركيب «محير العقول» بدلاً من التركيب الفارسي «حيرت انگيز»..

ويذكر مولانا عبد الماجد أن أبا الكلام كان يطلع على القراء كل أسبوع بتعبيرات جديدة ومصطلحات لم يسمعوا عنها، وبتشبيهات وتراكيب جديدة، والعجيب أنّها كانت تظهر علىٰ صفحات جريدته، فتصبح على الفور عملة رائجة بين جميع الأدباء.. لقد اعترف الجميع بعد ظهور الهلال بأن أبا الكلام آزاد هو الآن مولانا أبو الكلام آزاد، فقد صار كل بيت يلهث وراء الحصول على نسخة من الهلال[٢٦].

شارك مولانا آزاد في حركة تحرير الهند وفي حركة الخلافة وكان رئيساً لها، وألقى خطبة عن «مسألة الخلافة وجزيرة العرب»، وتعرض للسجن، ودافع عن نفسه في بيان عرف باسم: القول الفيصل، نشر في

مطبعة المنار عام ١٣٤١ هجرية باسم ثورة الهند السياسية، وأصدر ـ ولعدة أشهر (إبريل ١٩٢٣م ـ يونيو ١٩٢٤م) ـ باللغة العربية «الجامعة» مجلة نصف شهرية، ومن مؤلفاته المرأة المسلمة، ومسألة خلافت وجزيرة العرب، وجامع الشواهد عن دخول غير المسلمين المساجد، وترجمان القرآن ٣ مجلدات، وغبار خاطر، ومكاتيب، والهند تكسب حريتها وغيرها[٢٧].

عبد الله السندي في مكة:

يصعب حصر علماء شبه القارة الذين جذبتهم مكة المكرمة إلى أرضها، لهذا نكتفي بالإشارة إلى بعض من ذاعت شهرتهم، وهناك كثيرون لا يسمح المجال لذكرهم أيضاً، ولا يقلل هذا من قدرهم، فعبد الله السندي ولد في أسرة سيخية في قرية جياتوالي بالجيم المثلثة مديرية سيالكوت في إقليم البنجاب (باكستان) في محرم عام ١٢٨٩هـ/ مارس ١٨٧٢م، كفله أعمامه بعد وفاة أبيه قبل مولده بأربعة أشهر، وكانوا يعيشون في جام بور مركز ديره غازي خان (باكستان)، وهناك طالع كتاباً بقلم راهب هندوسي أسلم حديثاً بعنوان «تحفة الهند»، فشرح الله قلبه للإسلام، فودع أهله ووصل إلى إقليم السند حيث أعلن إسلامه على يد أحد شيوخ السند الكبار (حافظ محمّد صديق) وتسمى بعبد الله، وقد كتب سيرة حياته بنفسه، بعد أن هاجر إلى مكة المكرمة، وأثناء إقامته فيها، وذكر أنه اعتبر شيخه والده، والسند موطنه، ولهذا سمى نفسه بالسندي.

درس عبد الله السندي في ديوبند، وبناء على طلب من شيخ الهند مولانا محمود الحسم عمل في ديوبند لأربع سنوات منذ سنة ١٣٢٧هـ، ١٩٠٩م وانتقل بعدها إلى دهلي حيث أسس نظارة المعارف، ثم سافر إلى كابول، ومنها إلى تركيا حيث قضى ثلاث سنوات، وقدم إلى مكة المكرمة سنة ١٣٤٥هـ، ١٩٢٦م، وظل في مكة نحو اثنا عشر عاماً، فقد عاد سنة ١٩٣٨م لينهمك في العمل

السياسي إلى أن وافته المنية سنة ١٩٤٤م، ودفن في خان بور بالبنجاب.

ويذكر أنه في مكة المكرمة قام بالإشراف على طباعة كتاب شاه ولي الله «المستوي من أحاديث الموطأ»، وفي مكة المكرمة أيضاً قام بكتابة التفسير الذي أملاه عليه العالم الروسي التركي اللاجىء إلى مكة موسى جار الله (١٨٧٠م ـ ١٩٤٩م) وهو تفسير القرآن، باللغة العربية، فقد كتب عبد الله السندي:

«ما كان يقوله بالعربية، كنت أقوم بكتابته، فقمت بكتابة ألف وأربعمائة صفحة في مائة وخمسين يوماً»[٢٨].

ومن مؤلفات عبد الله السندي العربية: التمهيد لأئمة التجويد، وهو يتضمن أقوال شاه ولي الله الدهلوي وأولاده وأحفاده من بعده[٢٩].

محمد يوسف الكاندهلوي في مكة:

هذا عالم آخر يدعى الشيخ محمد يوسف بن الشيخ محمد إلياس، ولد في دهلي في جمادي سنة ١٣٣٥هـ. مارس ١٩١٧م، وهو ينسب إلى «كانده» التي تقع في غربي الولاية الشمالية بمديرية مظفر آباد بالهند، حفظ القرآن وهو في العاشرة من عمره، وأتم دراسة الحديث في مدرسة مظاهر العلوم بسهارنبور.

استخلف الشيخ محمد إلياس ولده الشيخ محمد يوسف وفوض إليه أمر الدعوة والتبليغ في رجب ١٣٦٢ هجرية، والشيخ محمد إلياس هو مؤسس جماعة التبليغ، وقد حرص الشيخ محمد يوسف على أن يرى عمل الدعوة والتبليغ ينتشر في مهد الإسلام، مكة المكرمة، وينال من أهلها إقبالاً وعنايةً، وكان يرى أن هذه الدعوة إذا تأصلت جذورها في هذه الأرض المقدسة، تستطيع أن تنتشر في العالم كله عن طريق المسلمين الذين يجتمعون فيها من جميع أنحاء العالم، لتأدية فريضة الحج كل عام، ولهذا هاجر إلى مكة وبدأ عمله في الحجاج القادمين إلى مكة من بومباي وكراتشي، حيث رافقهم،

ووصل إلى مكة المكرمة، وهنا أخذ يزور الحجاج ويبعث العلماء فيهم، وهكذا أسست جماعات التبليغ، وأقيمت حلقات في الحرمين الشريفين.

وقد قدم للحج ثلاث مرات، قدم مع والده سنة ١٣٥٦ هجرية، ومع الشيخ حسين أحمد مدني سنة ١٣٧٤ هجرية، وجاء قبل وفاته بعام سنة ١٣٨٣ هجرية (١٩٦٤م) حين ورد إلى مكة مع جماعة كبيرة، وطاف مكة المكرمة وما حولها من قرى، وقد نفخ في عبادة الحج روحاً جديدة، وجعلها وسيلة الدعوة والتبليغ، وعقد اجتماعات كبرى حاشدة بين الناس.

وكان يرى أن المحاضرات ودراسة الكتب لا تكفيان وحدهما إذ لابد من تغيير الباطن وتزكية الأخلاق والأعمال.

من مؤلفاته: حياة الصحابة، وقد طبع في بيروت، دار صعب، وهو يدل على مقدار تبحره في السيرة النبوية وأحوال الصحابة، وهو ذخيرة نادرة[٣٠].

قطب الدين النهروالي:

سبقت الإشارة إليه من قبل، ونذكره هنا رغم تقدمه على من ذكرنا تاريخياً، وهو المفتي قطب الدين محمد بن رحمة النهروالي، ولد سنة ٩١٧هـ / ١٥١٢م في لاهور، إلا أن أجداده كانوا من مركز «نهرواله» بمحافظة الگجرات، ولهذا يقال له: «النهروالي» نسبة إلى موطن أجداده، وكان قد قدم إلى مكة المكرمة مع والده وهو طفل، فتتلمذ على يد العلماء المشهورين في مكة آنذاك، ونال من المعارف والعلوم أكثرها، وبرع في الأدب العربي والحديث والفقه والتفسير والتاريخ والبلاغة، ودليل ذلك كتابه البرق اليماني في فتح العثماني، عينه السلطان العثماني ناظراً لشعبة الأمور الدينية في مكة المكرمة، ثم صار مفتياً للبلد الحرام ومدرساً للمدرسة السليمانية، وقد توفي في ربيع الثاني ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م وكان قد أكمل كتابه تاريخ مكة سنة ٩٨٥ هجرية كما ذكرنا من قبل[٣١].

حكيم مولوي إرادت حسين:

حج للمرة الثانية سنة ١٢٨١ هجرية، وظل مقيماً في مكة ثلاث عشرة سنة، قدم خلالها خدمات جليلة لأهل مكة وللحجاج، وقد ذكر مولانا أبو الفتح محمد عبدالرحيم الزبيري الهاشمي الصادقبوري (متوفى ١٣٤١ هجرية) في كتابه «الدر المنثور» المعروف باسم تذكرة صادقة «أن حكيم مولوي إرادت حسين جمع من الحجاج التبرعات، وطهّر نهر مصر، كما قام بتوسيع الطريق المجاور لرمي الجمرات في منى وكان ضيقاً، ولم يكن هناك طريق للخروج بعد الرمي مما كان يسبب مشاكل أثناء عودتهم، وبخاصة للضعفاء والعجزة، فقام مولوي إرادت حسين وجمع التبرعات من الباشاوات والشرفاء، وحفر الهضاب هناك، وقام بتوسيع الشارع، وشق طريقاً خلف الجمرات حتى يأتي الناس من ناحية، فيرمون الجمار، ثم يمضون من ناحية أخرى، ولا يحدث الزحام في العودة»[٣٢].

مكة وحركة الإصلاح الديني في شبه القارة:

١ - حركة تيتو مير.

٢ - الحركة الفرائضية.

٣ - جماعة المجاهدين.

حركة تيتو مير الإصلاحية في البنغال:

قام أحد علماء البنغال ويدعى مير نثار علي الذي اشتهر باسم تيتو مير بحركة إصلاحية في البنغال، للتخلص من ظلم الإقطاع الغربي والهندوسي، وكانت هذه الحركة الإصلاحية قصيرة ما بين ١٨٢٧م وسنة ١٨٣١م[٣٣].

وأهمية الإشارة إلى هذه الحركة في بحثنا هذا ترجع إلى ارتباط صاحبها بمكة المكرمة، فقد عقد العزم على القدوم إلى مكة للحج والاستزادة من التعليم الإسلامي، وربما وصل مكة سنة ١٨٢٣م[٣٤]، ويذكر الدكتور مهر علي أن المصادر تذكر أن تيتو مير وصل إلى مكة المكرمة بعد سنة واحدة من وصول سيد أحمد شهيد

بريلوي زعيم حركة المجاهدين في الهند.

وقد عاد تيتو مير إلى كلكتا ربما سنة ١٨٢٧م واستقر في «حيدر بور» في مقاطعة «باراسات»، وبعد فترة قصيرة بدأ حركته الإصلاحية بين مسلمي المنطقة، فدعاهم إلى التمسك بالتوحيد والبعد عن الشرك والبدعة[٣٥]، والبعد عن التفرقة بين الناس داخل المجتمع طبقاً لمكانتهم العائلية، كذا عارض أيضاً ظلم ملاك الأراضي للفلاحين ودعا إلى رفض دفع الضرائب[٣٦].

الحركة الفرائضية لحاجي شريعت‌الله:

والحركة الفرائضية ـ أو كما تطلق عليها الموسوعة الإسلامية الأردية الجماعة الفرائضية ـ جماعة مسلمة في البنغال أسسها حاجي شريعت‌الله[٣٧]، ولد سنة ١٧٨١م في قرية تابعة لمركز ماداري بور بديرية فريد بور، درس القرآن الكريم وعلوم الدين على يد أستاذه الأول مولانا بشارت علي، وقد كانت سنة ١٧٩٩م نقطة تحول في حياته، حين رافق أستاذه مولانا بشارت علي إلى مكة[٣٨]، وتشير دائرة المعارف الإسلامية الأردية أنه قدم لأداء مناسك الحج حين كان عمره ١٧ سنة، حيث اشترك في حلقة الشيخ طاهر السنبل الشافعي المكي، وأقام بمكة حوالي عشرين عاماً، وطبقاً لبعض الروايات، سافر إلى وطنه مرة أو مرتين خلال تلك المدة، بينما يذكر الدكتور مهر علي أنه عاش ما يقرب من ١٦ سنة (١٨٠٠م ـ ١٨١٥م) دارساً للقرآن والحديث والفقه

والعلوم الإسلامية الأخرى التي كانت تدرس في الحرمين الشريفين، وبرع في العربية وعلومها، وأنه درس على يد مولانا مراد البنغالي لمدة سنتين ثم بقي بعد ذلك تحت إشراف طاهر سنبل، أستاذ الحنفية، ومن أتباع الطريقة القادرية.

قبل عودته إلى موطنه زار القاهرة، حيث قضى هناك سنتين يدرس العلوم الإسلامية في جامعة الأزهر، ثم عاد إلى مسقط رأسه «فريد بور» سنة ١٨١٨م، بينما تذكر دائرة المعارف الإسلامية أنه عاد سنة ١٨٢٠م.

وهكذا قضى شبابه والجزء المؤثر من حياته في مكة والمدينة مهد الإسلام ومركز الإسلام، ... وحين رجع إلى موطنه نال شهرة كبيرة كعالم وتقي، ويحكى أنه تعرّض مرة لقطاع الطرق الذين سلبوه كل شيء بما في ذلك بعض الأشياء التي حملها معه من مكة، وكانت عزيزة عليه، ومنها كتب ورسائل مهمة، إلا أن سلوكه الطيب جعل قطاع الطرق يتأثرون به، فيتوبون، ويتبعونه في عمل الخير.

وقد بدأ حاجي شريعت الله بالتدريس وبالنصح والإرشاد في قرى بلاده في صمت لعدة سنوات، في فترة كان المزارعون المسلمون يعانون من سطوة ملاك الأراضي، والتجار الهندوس والإنجليز، كما لم يكن لهم نصيب من تعاليم الإسلام الصحيحة، فقد خلطوا دينهم الإسلامي بخرافات الهندوسية وبدعها، بحيث يصعب التمييز بين المسلم والهندوسي، فقام حاجي شريعت الله بإيضاح مبادىء الإسلام الصحيحة لهم، وبين لهم ما دخل الإسلام من شوائب وعقائد غير صحيحة، وبين لهم أن سوء حالهم إنما هو بسبب بعدهم عن التعاليم الصحيحة للإسلام.

لم تلق دعوته في البداية أذناً صاغية، فلم يكن من السهل على هؤلاء الناس ترك تلك التقاليد التي تغلغلت في نفوسهم منذ قرون، فقد كانوا يظنون أنها تقاليد الإسلام وتعاليمه ولهذا خالفوه مخالفة شديدة، وتعرض الرجل للسب والشتم[٣٩]،

فشعر حاجي شريعت الله أنه بحاجة إلى العودة إلى مكة المكرمة لاستشارة أستاذه، والحصول منه على إذن بالبدء علانية في حركته الإصلاحية[٤٠]، وهكذا عاد إلى مكة سنة ١٨١٩م ـ ١٨٢٠م كما يقول الدكتور مهر علي، وكان قبل عودته إلى مكة قد تزوج وأنجب ولده محمد محسن (١٨١٩م).

ويذكر الدكتور معين الدين أنّ هدفه من هذه الرحلة الخاصّة كان استشارة أستاذه فيما يقوم به من إصلاحات[٤١].

وعلى كل حال عاد حاجي شريعت الله ليبدأ حركته الإصلاحية التي عرفت باسم «الحركة الفرائضية»، لأنه ركز كثيراً على أداء فرائض الإسلام، وأمر بالقضاء على ما يسمى بالشيخ والمريد، ورأى أن تكون العلاقة في مثل هذه الحالة كالعلاقة بين الأستاذ والتلميذ، وقد وجدت لحركته قبولاً بين الناس وبدأت تتسع، وتتخذ طابعاً اجتماعياً وسياسياً، فقد أوجدت تعاليم الإسلام الداعية إلى المساواة والأخوة والجرأة والشجاعة صدى في نفوس المزارعين البنغاليين، في وقت أعلن فيه حاجي شريعة الله أن الهند دار حرب، وأن بها حكومة تقوم بإيقاع الظلم بالمسلمين ولهذا لا يجوز صلاة العيدين والجمعة هنا[٤٢]، وذكرت وثائق شركة الهند الشرقية أن الهندوس والإنجليز كانوا يشعرون بالرعب من أتباع الحركة الفرائضية.

وفي سنة ١٨٣١م اتخذ الصراع شكلاً منظماً، مما دفع الحكومة إلى القبض على عدد كبير من أتباع الجماعة، ووجهت التهمة إلى حاجي شريعت الله لكن صدر الحكم ببراءته، بعدها فضل الشيخ الانزواء في قريته والاستمرار في عملية الدعوة والتبليغ إلى أن توفي سنة ١٨٤٠م عن عمر يناهز التاسعة والخمسين[٤٣].

تولى قيادة الحركة من بعده ابنه محمد محسن أو محسن الدين أحمد الذي اشتهر باسم دودهو ميان، ورغم أنه كان في العشرين أو الثانية والعشرين من عمره إلا أنه حقق مكانة بين أتباع الحركة بسرعة،

فالحركة التي اقتصرت في حياة والده على عدة مديريات ومراكز انتشرت الآن في جميع مناطق البنغال الشرقية.

وقد تعلم دودهو ميان على يد والده الذي أرسله عندما كان في الثانية عشرة من عمره إلى مكة المكرمة للمزيد من التعليم الإسلامي، فقضى الابن في مكة خمس سنوات، عاد بعدها إلى موطنه سنة ١٨٣٧م، بعد أن استدعاه والده لتقدّمه في السن[٤٤]، وقد فصل الدكتور مهر علي كيفية تنظيمه للحركة بعد وفاة والده[٤٥] وصراعه مع ملاك الأراضي[٤٦]، ويذكر أن دودهو ميان عاد مرة أخرى إلى مكة، وأثناء غيابه في بداية عام ١٨٤٣م بدأت الحكومة تهاجم أتباع الحركة للقضاء عليها[٤٧].

وقد شعر الإنجليز أن أتباع الحركة الفرائضية يريدون إخراج الإنجليز من البنغال بعد أن جند دودهو ميان ثمانين ألف ناشط من أتباعه، ولهذا صدر الحكم ضد أتباع الحركة والقبض على دودهو ميان حين اندلعت حرب التحرير سنة ١٨٥٧م بعد مرضه الشديد، وتوفي في سبتمبر ١٨٦٢م عن عمر يناهز الثانية أو الثالثة والأربعين.

ومما يذكر أن الحركة الفرائضية تركت تأثيرها الواضح على مسلمي البنغال، فقد بدؤا يعتمدون على أنفسهم، وبثت فيهم الحمية الدينية وأوجدت بداخلهم عاطفة الجهاد ضد الظلم من أجل الحصول على حقوقهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهكذا ظهرت في البنغال يقظة عامة لا يمكن لأحد أن ينكرها أو يغفل عن ذكرها[٤٨].

سيد أحمد شهيد وجماعة المجاهدين:

ولد سيد أحمد شهيد بن سيد محمد عرفان في صفر سنة ١٢٠١هـ. / نوفمبر ١٧٨٦م في راي بريلي (أودھ)، ويقال: إن نسبه يصل إلى علي عليه السلام، اشتهر بقوته الجسدية غير العادية، بدأ بخدمة أهل الحي والجيران، ثم بدأ في خدمة الفقراء والمساكين، تعلم على يد

شاه عبد العزيز المحدث المشهور في دهلي، ثم أرسله شاه عبد العزيز إلى أخيه شاه عبد القادر[٤٩].

نظراً لسيطرة الإفرنج على الطرق البحرية أفتى بعض علماء الهند بسقوط فريضة الحج، لكن علماء الحق عارضوا الفتوى، وهكذا أعد سيد أحمد شهيد العدة مع أربعمائة من رفاقه للسفر إلى مكة، في شوال ١٢٣٦هـ/ يوليو ١٨٢١م وقد انضم إليه عدد كبير، ووصل عدد القافلة نحو ٧٠٠ حاج، وقد كتب رسائل إلى جماعته في دهلي، وسهارنبور وغيرها، جاء فيها: (نحن ذاهبون لأداء فريضة الحج، فعلى من ينوي الحج أن يرافقنا، لكن ليعلم الجميع أننا لا نملك مالاً ولا متاعاً، لكننا متوكلون على الله وحده، نعتمد على الله، وعلى جهدنا وما نكسب من عمل نؤجر عليه، أما النساء والضعفاء فيكفلهم القادرون منا».

بدأت الرحلة إلى مكة من كلكتا، ومنها إلى بومباي، وصولاً إلى جدة.

وكان سيد أحمد شهيد يفكر في الهجرة من الهند «دار الحرب» والذهاب إلى مكة المكرمة والبقاء في الحرمين الشريفين دون عودة، إلا أنه فكر في الواجب المقدس، وهو رفع كلمة الله، وتطبيق السنة النبوية والقضاء على البدعة وأنواع الشرك المختلفة.

ويرى معظم الباحثين أن سيد أحمد شهيد قد طور اتجاهه غير السياسي أو المفهوم غير السياسي للجهاد حين كان في مكة يؤدي فريضة الحج.

فقد تشجع من خلال النجاح المشهود المتمثل في اصطحاب مئات الناس إلى الحج، فعرض عليهم الجهاد مثلما عرض عليهم الحج من زاوية دينية خالصة، مؤكداً على الاعتماد الكامل على الله.

والحقيقة أن سيد أحمد شهيد كان قد بدأ ما أطلق عليه البعض «الطريقة المحمدية» وذلك سنة ١٨١٨م من دهلي، بمباركة شاه عبد العزيز، وكانت بدايتها عملية إصلاح

ديني تحولت فيما بعد إلى حركة اجتماعية سياسية، تحولت بعد حين وبعد العودة من مكة المكرمة إلى حركة جهاد ضد السيخ، ولهذا أطلق عليها حركة الجهاد «تحريك مجاهدين»، بينما أطلقت الإرادة البريطانية في الهند والكتّاب الأوروبيون عليها اسم الحركة الوهابية الهندية: Indian Wahahabism or Wahabi Fanticism، نظراً لشكهم في نواياها السياسية من ناحية، ولوجود تماثل بينها، وبين حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من ناحية أخرى[٥٠].

وصلت القافلة بالقرب من مكة في ٢٩ شعبان ١٢٣٧هـ، فدخلت من طريق أعلى مكة عملاً بسنة النبي، ثم دخلت الحرم من باب السلام، وقد نزلت القافلة بالقرب من باب العمرة في بيوت استأجروها، وكان الإمام مع رفاقه من العلماء يجتمعون بعلماء مكة وشيوخها.. وفي يوم العيد التقوا من علماء مكة بالشيخ المحدث عمر عبد الرسول الحنفي، ووفد عدد كبير من العلماء والشيوخ على الإمام، ومن هؤلاء الشيخ مصطفى إمام الحنفية وخواجه ألماس الهندي، وخواجه سرا شيخ الدين والشيخ شمس الدين شطا، وأحمد باشا، وحسن أفندي نائب سلطان مصر، وكذلك أحد كبار مسلمي البلغار (يمتلك مطبعة في بلغاريا) والشيخ عبد الله سراج المكي، وكذا وزير سلطان المغرب ويدعى سيد محمد الذي اشتهر بحفظه لصحيح البخاري مع شرح القسطلاني، وكذا الشيخ إدريس ومحمد علي الهندي، وملا بخاري، بالإضافة إلى مفتي الشافعية الشيخ صالح الشافعي ومفتي الحنفية وواعظها الشيخ علي.

وبناء على رجاء من الشيخ حسن أفندي قام مولانا عبدالحي ومولانا محمد إسماعيل بترجمة كتاب الإمام «الصراط المستقيم» إلى اللغة العربية، وحصل على نسخ منه العلماء الذين وفدوا على مقر إقامة الإمام[٥١].

وقد حل رمضان على القافلة للمرة الثاني وهي في مكة فقضت

القافلة رمضان في مكة، وفي منتصف شوال استعدت القافلة لرحلة العودة إلى الهند، وفي غرة ذي القعدة سنة ١٢٣٨هـ / العاشر من يوليو ١٨٢٣م طاف سيد أحمد شهيد مع رفاقه طواف الوداع.. لتتجه القافلة بعد ذلك إلى الهند حيث بدأ الشيخ برنامجه الذي فكر فيه طويلاً، برنامج الجهاد وذلك لتأسيس حكم إسلامي في شبه القارة يتفق والمبادىء الإسلامية.

وفي نهاية ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٦م بدأ الجهاد الفعلي ضد السيخ في منطقة البنجاب، وقد انضم إليه عدد كبير جداً من كبار علماء الهند من بينهم مولانا شاه إسماعيل شهيد حفيد شاه ولي الله محدث الدهلوي[٥٢]، وقد استشهد في ذي القعدة ١٢٤٦هـ ـ مايو ١٨٣١م في معركة بالاكوت، وكان قد قدم للحج أواخر شوال ١٢٣٦هـ. (مع والدته وأخته) واستمر بأرض الحرمين حتى أواخر شعبان ١٢٣٩هـ. وكان برفقة سيد أحمد شهيد، ومنهم أيضاً مولوي عبدالحي الذي اشترك مع شاه إسماعيل في الجهاد وفي تأليف كتاب صراط مستقيم بالفارسية، وقام بترجمته إلى العربية أثناء الإقامة في مكة المكرمة، ومن الأدباء شاعر الأردية حكيم مؤمن الذي نظم الكثير من الأشعار بالفارسية والأردية عن جهاد سيد أحمد شهيد ورفاقه (مثنوي جهادية)، والأديب محمد جعفر تهانسيري الذي أرخ لحركة الجهاد.

مكة المكرمة في أدب شبه القارة:

أ. في النثر الفني.

ب. في الشعر.

ج. الرمزية والدلالات الشعرية.

لا شك أن أدباء شبه القارة الهندية عبروا عن مشاعرهم الجياشة، أثناء زيارتهم للأراضي المقدسة، ووجودهم في المدينة المقدسة حيث بيت الله، ومهبط الوحي ومركز النور الذي أضاء ظلام الجهل، وقد زخرت مادة كتبهم ورحلاتهم بخاصة بالعناصر الأدبية فهي تصاغ بلغة أديبة في معظمها، ولغتهم في تناولهم للمدينة المقدسة، لغة رقيقة

المستوى عظيمة التأثير والإمتاع، على مستوى عال من الفن، والصياغة الأدبية، وكان للحج أثره في التأثير على أدباء شبه القارة الذين كتبوا مئات الكتب عن رحلاتهم إلى المدينة المقدسة وبلاد الحرمين[٥٣] وأسهمت هي الكتب في تطوير الأدب الأردي، وتنمية اللغة الأردية نفسها[٥٤].

ومن الملاحظ أن أسلوب وصف الأحداث حتى لا يخلو من الإبداع الأدبي، عن طريق استخدام اللغة الجميلة المعبرة، وروح الدعابة، فالكاتب مفتاح الدين ظفر يصف منظر رمي الجمرات في رحلته المسماة «سفر مقدس»[٥٥] أي الرحلة المقدسة هكذا:

«حين بدأت أرمي بأول جمرة قائلاً: الله أكبر.. إذا بحشد من الناس يدفعني فيلقي بي في الخلف.. بعيداً.. ووجدتني أذهب بعيداً جداً.. فتشجعت .. وتقدمت إلى الأمام، لكن الجمرات كانت تنهمر من عدد كبير من الحجاج، فأصابتني حصاة كبيرة الحجم، سقطت على رأسي، وبدت الحصوات كنجوم الليل، تتراقص أمام عيني، وبينما كنت أرمي بالجمرة الرابعة أو الخامسة إذا بحبشي ضخم الجثة، يضربني على رأسي بكوعه، وكأنه يدقني في الأرض، فتسمرت في مكاني وأنا أتأوه من الألم...!».

والأديب الصحافي ألطاف حسين قريشي يصف في رحلته «ومضت قافلة القلب» تجربته في حج عام ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م[٥٦]، وأسلوبه الوصفي فيه إبداع أدبي مؤثر:

«خلفنا وراءنا مدينة الأمل، ودخلنا في ظل الجبال الوعرة، التي كانت أشعة الشمس الفضية الهادئة تنعكس عليها... لا أدري لماذا تخشى الظلمةُ النور؟! فلو انطلقت شرارة واحدة، ترى الظلمة انقشعت من حولها مضطربة..».

«..كان في الخيمة عشرون أو أكثر، سلمت عليهم وجلست في ناحية من الخيمة كانت هناك سجادة من النوع الثمين، وكانت الوجوه الوردية تبدو ملامحها وسط الضوء الخافت.. كان هناك حاج يجلس في الجانب الشمالي مستغرقاً في قراءة كتاب. كان عذب الصوت.. وأمامه جلس رجلان يستمعان إليه وينصتان بكل حواسهما، ثم رقدا بالقرب منه، أما بقية الناس فقد انشغلوا بأمور لاهية.. وكانت ضحكاتهم، وقهقهاتهم تسمع من بعيد، كانت في ضحكاتهم قوة الحياة لكنها فتقت جراح روحي وكأنها ضرب سياط مستمر...».

والوصف العادي لمكة المكرمة، يتخذ لوناً آخر عند أدباء شبه القارة ففي كتاب الحج والزيارة لمحمد صابر جاء ما يلي:

«حين انبعث صدى الأذان من الحرم الشريف خرج الناس من كل صوب متجهين لأداء الصلاة، فترى الطرقات الواصلة بين البيوت والحرم وقد غصت بالناس، وبدا الجميع أمامك وكأنهم يهرولون.. في مكة لايشعر الإنسان بذرة من غربة، فالقلب يأنس الحواري والطرقات، وكأنه سكن هنا منذ سنوات..»[٥٧].

ومن رحلات الحج التي وصل مستواها إلى مستوى أدبي رفيع رحلة سيد أبي الخير كشفي بعنوان «من الوطن إلى الوطن»، وهي كما قال الناقد والباحث أنور سديد[٥٨]، دعاء طويل ظل يخرج من أعماق قلب يبحث عن مرهم لمداواة صدمة أصابت الجسد الترابي، والأسلوب الأدبي يعبر عن مشاعر المؤلف في الديار المقدسة:

«هذا الطواف حول الكعبة كان سنة إبراهيمية.. كانت حلقة

السلاسل التي تقيدني تتحطم مع كل خطوة أخطوها، وحين كنت متوجهاً إلى حرم الكعبة كان نداء لبيك.. لبيك.. يرن في داخلي، كأنه يعلن عن ميلادي ووجودي، وشعرت كأنني تلميذ جئت لأسجل حضوري هنا...».

النثر الفني الممزوج بالشعر:

في رحلة الأديب الصحافي ماهر القادري [٥٩] بعنوان قافلة الحجاز [٦٠]، نلاحظ روعة الأسلوب الأدبي، وقوة النثر الفني و تمازجه بشعر عدد من كبار الشعراء فضلاً عن شعر الأديب نفسه، فماهر القادري شاعر تهتز مشاعره، فينطلق لسانه بالشعر [٦١].

يقول مخاطباً قلبه:

«يا قلب! تمالك.. وتمسك!
نحن مقبلون على مهبط الوحي
فتمالك وتمسك!
يا قلبي الضعيف! افرح واسعد
فرب العالمين يعرف أنك مكلوم
تمالك وتمسك
وأنظر سحب الرحمة تلوح في الأفق
ستسقط أمطارها في يوم معلوم
فتمالك وتمسك!»

ثم يودع مكة المكرمة فيقول:

«جاء بي إلى الحفل أمنية رؤية الحبيب
ها أنا أترك الحفل
وأحمل بداخلي
أمنية العودة
لرؤية الحبيب».

«...كنت أقف.. أتطلع بعيون كلها حسرات إلى أرض الجزيرة العربية، أرض الحرمين الشريفين.. و تذكرت ذنوبي و تقصيري، و تذكرت غفلتي و خجلت كثيراً، حاولت في أرض الحرمين أن أستجمع كل مشاعري لكن القلب في هوس يظل يصطنع صوراً في الخفاء.. ورحت أنا المسكين أتذكر قول من ناجوا ربهم «ما عبدناك حق عبادتك» و أحاول أن أجد لنفسي موضعاً بين هؤلاء، لكن هيهات..

الوداع يا أرض جزيرة العرب الطاهرة
ذراتك حافظة للرفعة والرشاد

الوداع يا أرض الذكر والصلاة
الوداع يا موطن العفو و النجاة
الوداع أيتها الأرض بـلا زرع، بلا ماء
الوداع يا جنة العين والفؤاد
ها قد افترقنا عن جبل بو قبيس وجبل الصفا
الوداع يا غار ثور.. ويـا غـار حراء
الوداع يا مقام إبراهيم
الوداعأيها المطاف والركن اليماني والحطيم..
الوداع يـا حمـام الحـمى؛ حمـام الحرم
الوداع يا أهل التـقوى.. أهـل الحرم، أهل الكرم
الوداع يا جوار بيت الله
الوداع يا ملجأ الضعفاء
الوداع يا بئر زمزم
يا سبيل الله للعطشى
الوداع يا ذكرى إسماعيل
الوداع يا أرض الحرم
بارك الله فيك
ففي ترابك للوفاء ضمير
فالوداع.. الوداع
يا أرض الضمير الطاهر».

وهكـــذا ودع الأديب مـــاهر القادري الأرض المقدسة وهو يشـعر بأنه قـد حمـل زاداً روحـياً ومـعنوياً يكفيه طوال حياته فأنشد يقول:

«قال نسيم السحر وهـو يمـضي من الخميلة:
لا حـاجة لنـا بـزاد الطـريق في الرحلة الطويلة».

أما الأديب النيبالي عبد الرؤوف رحمـاني جـهندانكـري فكـتب عـن رحـلته للـحج عـام ١٣٧٨هـ. كـتاباً بعنوان «سفرنامه حجاز»، مزج فـيه أيضاً بين النثر الفني والشعر.

كتب يقول: وذات ليـلة نمت في مكتب المعلم عـبدالهـادي سكـندر، وحين حان وقت صلاة الفجر سمـعت صوت رجل سعودي ينادي:

«يا أيها النائم
هذا وقت الغنائم
صلوا الصلاة دائم..»

وكنت كلما نمت في مكتب المعلم أسمع النداء وقت الفجر، وكأني أسمـع

ترجمة أشعار الشيخ فريد الدين شكر كنج[٦٢].

وقت السحر وقت المناجاة
فانهض في هذا الوقت
ففيه تنال البركات
واستمع لنصيحتي
هيهات أن تضيع العمر هباء
هيهات..هيهات!»[٦٣].

وهـذا أديب آخـر هـو حـافظ لدهيانوي [٦٤] الذي كتب عن رحـلته إلى الحج كتاباً بعنوان «جمال الحرمين» جاء فيه:

«لم تطلع على حياتي شمس أجمل من شمس ذلك اليوم، ولم تمر عليّ لمحة سـعيدة أبـداً كـتلك اللـمحة، لم ولن تسـمع أذني خـبراً أطـيب مـن ذلك الخبر الذي سمعته اليوم، فاليوم حلت بي اللحظة المـباركة وكـانت قـدري، حين سمعت أن طلبي للذهاب إلى مكة قد ووفق عليه..كان هذا اليوم السعيد ثمرة دعاء مستمر وأمنية عمري كـلّه ورغبة حياتي»[٦٥]..

وهكذا نجد أنـفسنا أمـام أديب يختلف في بيان مشـاعره، فـهو يـركز على وصف المشـاعر الإنسـانية، كـما يمزج وصفه لها بوصفه للطبيعة:

«راحت الليالي المقمرة تبارك لنا سـعادتنا، والفـضاء اللـبني يُسـمعنا أصـواتـه العـذبة، والوادي كـله بـدا مـملوءاً بـذكرى المـصطفى، وتحـولت جمـيع الكـائنات إلى بـقعة مـن نـور وفرشت الطـرق كـلها بكـل مـا هـو لطيف، وراحت حبات دموع السرور والسعادة تتناثر كـالنجوم اللامـعات على صفحة الأرض المقدسة وتحـول الطريق كله إلى نور حتى صار كدرب التبانة، وشعرنا كأن سفرنا هذا فـوق السماء لا على الأرض»[٦٦]..

الرمزية في النثر الفني عند أدبـاء شبه القارة:

اتبع الأدباء في شبه القارة أسلوباً رمـــزياً للـــتعبير عـــن أفكـــارهم وعواطفهم ومشـاعرهم، في حـالات خـــاصة، وهـــنا يكـــتفي البـــاحث بـــنموذجين اثـــنين لأديـبين أولهـما للدكتور عبدالرحمـن خـالد[٦٧] الذي كتب كتاباً بعنوان «حج أعجمي» وهو

يقصد العنوان ومعناه ومغزاه، وقد أشار بين سطور كتابه إلى ما يعانيه المسلم في شبه القارة من بعض الوعاظ والمرشدين، وأشار إلى ذلك بأسلوب رمزي، يفهمه من يقف على مجريات الأمور هناك:

وعلى كل حال دخلنا من باب السلام الذي لا يزال اسمه باب السلام وكأننا خالفنا نصيحة الشيخ لأنه قال بأن اسمه اليوم باب الفتح!

«كان الشيخ قد أخافنا كثيراً من أن ينزل علينا غضب الله، لهذا رحت أحتاط في كل خطوة أخطوها، أو حركة آتي بها، ثم اقتربت اللحظات المنتظرة، وظهر الحرم الشريف أمام أعيننا، كان علينا أن ندخل من باب السلام الذي يطلق عليه الآن اسماً جديداً هو باب الفتح، كان الشيخ قد نصحنا بالدخول من هذا الباب، لكنا أخطأنا أو هي مشيئة الله، الذي أراد لنا ذلك، لأن الأعاجم يردون كل شيء إلى مشيئة الله أو مرضاة الله، ويقولون دائماً هذا قدر من عند الله، بينما يعتبرون كل نجاح لهم ناتج عن فراستهم وجهدهم وتدبيرهم!... ربما كان السبب هو أننا لم نطلع على تعاليم القرآن.. وعلى كل حال دخلنا من باب السلام الذي لا يزال اسمه باب السلام وكأننا خالفنا نصيحة الشيخ لأنه قال بأن اسمه اليوم باب الفتح!

كان الدرس الثاني هو أن ننطلق بالدعاء فوراً إذا ما وقع نظرنا على الكعبة، وأن نفتح أعيننا حتى لا تنغلق رغماً عنا.. وقع نظري على الكعبة، بيت الله... والكعبة أمامي الآن وهذه لحظات سعدي وفرحي إلا أن الوسوسة والقلق أصابني قبل أن تحين هذه اللحظات السعيدة، فقد نسيت جميع الأدعية التي حفظني إياها الشيخ.. كانت حالتي تختلف عن حالة الطالب الذي حفظ خطبةً سيرددها في حفل التخرج وحين دق الجرس أدار وجهه ونسي كل شيء وراح يردد فقرة واحدة مرة تلو أخرى لعله يتذكر الفقرة التي تليها.. إن وضعي يختلف تماماً.. أنا لم أته وسط الأدعية، كما أنني لم أتذكر دعاءً واحداً، ولا يوجد

هنا جرس يدق فينبهني إلى انتهاء الوقت، إن كل انتباهي موجه إلى الكعبة المشرفة لا أتذكر الشيخ ولا الأدعية التي لقنني إياها، ولا أفكر ولا أخشى أن تنغلق عيناي، ثم أجلس لتضيع مني هذه اللحظة الثمينة الغالية.. وكنت أعجمياً!! كانت عيناي مفتوحتين بل وصلت هناك وأمام بيت الله بعينين مفتوحتين، فعيناي هما مترجمي الفوري فمن عيوبنا نحن الأعاجم القصور عن إلباس الألفاظ معانيها، والتعبير عما تحويه هذه الألفاظ عن معان تدور بخلدنا.. وهكذا ستظل عيناي مفتوحتين بأمر الله!!».

وفي مكة يتذكر الكاتب بلاده ويتحدث عنها أيضاً وعن مشاعره رمزاً دون تصريح أو توضيح:

«أمام الكعبة أخذت أدعو الله بهذا الدعاء مخاطباً رب الكعبة: يا إلهي مثلما أخافني الشيخ منك فإن حكام بلادي ورجال السياسة والصحفيين في بلادي جميعهم أخافوني، وأقلقوني على مستقبل بلادي، لم أسمع منهم منذ أن وعيت هذه الحياة خبراً طيباً حتى أصابني الوهم وأنا أستمع دائماً إلى الأخبار السيئة المشئومة عن باكستان حتى ابتلتني هذه الأخبار بالخوف والهلع والدوار.. ورغم كل هذا فلا بأس في أن نلوذ برحمةالله الواحد القهار، ليس في قلبي همة ولا توجد في فؤادي مشاعر الأمل، وربما كان السبب في ذلك أيضاً أن الشيخ وضع كل همه في إخافتنا منك يا إلهي.. لكنك يا إلهي رحيم كريم ستار...»[٦٨].

والنموذج الثاني كتاب الأديب ممتاز مفتي الذي توفي منذ سنوات[٦٩]، وهو يسعى دائماً إلى التعبير عن داخل الإنسان وبيان تأثير المرئيات على مشاعره، ويصور المشاعر بصورة تكاد تكون محسوسة، وهذه سطور يصور فيها مشاعره ومشاعر من حوله في وقفه يوم عرفة من عام ١٣٨٧هـ. / ١٩٦٨م:

«في هذا اليوم.. في وادي عرفة، لا نشاهد الوادي ولا نشاهد زحام الزائرين.. فقط كل ما هناك خيام في

خيام.. كان الزائرون التابعون لفندق الكعكي مقيدين في خيامهم، كان بعضهم يجلس في صمت تحت مظلات مفتوحة، الأصابع تحرك المسابح والشفاه تلهج بالتسبيح والتحميد، وعلى الوجوه سكون ممزوج بالأسى، والأكتاف محنية كأن شيئاً سقط عليها فراح أصحابها يتحملون هذا العبء بصبر وشكر..

كان هدوء الناس وسكونهم هذا مدعاة لقلقي الشديد، فصحيح أنهم كانوا جميعاً منشغلين بذكرالله، لكنّ الانشغال بذكر الله يكون أيضاً في البيت، وإذا كان التسبيح هو الهدف فهل كان من الضروري أن يقطعوا الأميال ليصلوا إلى ميدان عرفات؟!

لا..لا.. نهضت من هناك، واعترتني رغبة قلبية عارمة في أن أنطلق إلى وادي عرفة، وأن أثير الغبار شأني في ذلك شأن قيس في بادية نجد..

قبل أن أخرج من الخيمة فكرت في أن أخبر رفيقي «قدرت» بأني ذاهب.. ذاهب إلى أين؟ ذاهب لأي شيء؟ لكني ذاهب حتى لا يقلق بحثاً عني..

أدخلت رأسي في الخيمة فوجدته والدكتور عاطف غارقين في أداء الصلاة.. حين شاهدت «قدرت» وهو يصلي النفل لم أتأكد من أنه هو «قدرت» بدا لي إنساناً آخر، لم يكن هو كما عهدت أن أراه.. بدا وجهه

بالنسبة لي كأنك ضربت على كوب من زجاج فصار قطعاً صغيرة.. فتاتاً.. لكن هذه القطع متماسكة مع بعضها البعض لم تتحطم تماماً.. تحول وجهه إلى فتات متماسك وانحنى كتفاه كأنهما تحطما ووصلا إلى مستوى الأرض، وامتلأت كل ذرة من ذرات جسده بالاهتزاز واللجاجة والملامة والاضطراب..

وفكرت أن أتقدم.. لكن كيف؟ كيف أخبر هذا الإنسان الذي لا يدري شيئاً عن نفسه عن حالي؟! وهكذا غادرت خيام فندق الكعكي... وما هي إلا خطوات حتى وجدت نفسي داخل سوق كان هذا سوق الخيام التي كنا نقيم فيها وهناك محلات لبيع جميع أنواع الأطعمة، و... وانهمك الناس في البيع والشراء.. وبدا أنهم فريق ممن يؤدون فريضة الحج بالإضافة إلى أعمال البيت.. فراحوا يكسبون مكاسب دنيوية ودينية في عرفات...

هل تكمن في «الأرزاق» هذه الطاقة الكبيرة حتى إنها شكلت الجو العام هنا؟.. هل يتحول «كسب الأموال» إلى رغبة جامحة لدرجة أن الحاج جعل من قيام عرفات وسيلة للكسب المادي أيضاً؟.. هل للمادة هذه القوة بحيث لا يستطيع الناس مواجهتها؟ شعرت كأن إبليساً أقام هذه السوق حتى يشغل الحجاج، ويغرقهم في دوامة الطعام وكسب الأموال...

خرجت من السوق، فانتهى ما بي من ضيق.. وتراءت لي من بعيد قمة جبل الرحمة، وكأن جيشاً من النمل يعتلي قطعة من السكر، فقد كان الكثير من الناس قد صعدوا جبل الرحمة..

لا... لن أذهب وسط هذا الزحام، فأنا مريض لا أستطيع أن ألتقط أنفاسي في الزحام.. في ذلك الوقت طرأ عليّ نوع من الجنون لا اسم له، وبداخلي أخذت أمواج بحر السرور تتلاطم بشدة، كان سروراً ناتجاً عن الإحساس النابع عن وجودي في عرفات.. كنت أريد أن أمضي وحدي أتمتع بمشاعر السعادة

التي تملكتني.. أمضي وحدي أنتشي وأطرب، أدق طبول قلوب الزائرين، الذين وصل عددهم إلى سبعمائة ألف زائر لأخرجهم من الخيام المجنونة، ليلقوا بعيداً بمسابحهم، وليأتوا هنا، لنمضي معاً على طريق النبي ﷺ، نتلمس خطواته المباركة ونتبع أحكامه التي بلغنا إياها، نطبقها بتمامها وكمالها، وكأنه يراقبنا ونحن نمضي على سنته المباركة ونهجه النبوي القويم..»[٧٠].

مكة والحج والشعر في شبه القارة:

كان لمكة المكرمة والحج أثر كبير على شعراء شبه القارة، فقد نظموا أشعارهم معبرين عن أحاسيسهم تجاه المدينة المقدسة، كما نظم بعضهم رحلة حجه شعراً، بعد أن كتبها نثراً، والأمر الأهم هواستخدام المدينة المقدسة بكل ملامحها وجغرافيتها استخداماً رمزياً في الشعر الأردي، وهذا ما سنعرض له في الصفحات التالية لتكون ختام هذا البحث المتواضع.

كان لمكة أثر كبير على قلوب الحجاج الذين قدموا مع سيد أحمد شهيد، فقد نالوا غذاءً روحياً جعل الشاعر الشيخ سيد أبوالحسن وهو أحد من خلفوا سيد أحمد شهيد بعد استشهاده في معارك الجهاد ضد السيخ يقول في قصيدته يصف القافلة العائدة من مكة:

«عادت القافلة إلى داخل البلاد
بعد أن شرفت بأداء حج مبرور
كل فرد فيها ولي عارف
سمح الطلعة على وجهه
بهاء ونور
كل فرد فيها من رجال الله آمر بالمعروف
مجاهد قامع للبدعة
ناصح وناه لمن ينكر الأصول
كل فرد فيها يزيل من القلوب الكفر
كل فرد فيها وحيد أوانه، حافظ للقرآن
عالم، سخي، بهي الطلعة جسور»[٧١].

وهناك شاعر مشهور هو حفيظ

جـالندهري الذي نـظم شـاهنامة الإسـلام في أربـعة مجـلدات، يـصف انقشاع الظلمة في مكـة بـظهور نـور البعثة المحمدية، بل ويصف ما حـدث في مكة قبل ذلك من وصول الخـليل وولادة إسماعـيل، وتـعمير الكـعبة، ويستمر في عرضه للتاريخ شعراً حـتى يصل إلى حملة أبـرهة عـلى الكـعبة، ويـنتقل إلى ولادة النـبي، والبـعثة وغزوات الرسول [٧٢].

كان لمكة المكرمة والحج أثر كبير على شعراء شبه القارة، فقد نظموا أشعارهم معبرين عن أحاسيسهم تجاه المدينة المقدسة، كما نظم بعضهم رحلة حجه شعراً، بعد أن كتبها نثراً، والأمر الأهم هواستخدام المدينة المقدسة بكل ملامحها وجغرافيتها استخداماً رمزياً في الشعر الأردي

ومـن الأدبـاء الذيـن نـظموا رحـلتهم إلى الحـج شـعراً الأديب خطيب قادر بادشاه، وقد ركز على مشاعره الدينية، ووصف قدومه إلى مكـة، ووصـوله إلى الكـعبة، ووقوفه على عـرفات، واسـتخدم في شعره بحوراً وقوافي تتناسب مـع كـل مناسبة:

«نمضي هذه الأيام
صوب الكعبة المشرفة
نلبي دعوة الحق
أيـن نحـن مـن هـذه النـعمة العظمى..
ما أسعدنا بحظنا
وما أسعدنا بنصيبنا»

أمـا الشـاعر ضـياء الديـن القادري البدايوني فيقول:

«يا إلهي!
ها هو عبدك يودع
بيتك بعد أن حسنت نيتي
أين لي بعد ذلك
طواف الكعبة
أين لي بعد ذلك
رؤية الحرم
أتطلع إلى البيت الحرام
بعيون الفراق
ويعتصرني الحزن والألم
فقد انتهى العناق

كان ذهابي
وكانت عودتي
كلاهما
وقفاً على كرمك
يا إلهي!
أنت مولاي
تفعل ما تشاء!»

ومن الرحلات الشعرية رحلة بعنوان «كاروان حرم» أي قافلة الحرم للأديب المعاصر س مسلم عن حجه سنة ١٤٠٤هـ. / ١٩٨٣م جاء فيها:

«هنا تلفحت برداء الإحرام كفناً
هنا مزقت حجاب «الأنا»
الخادع
قطعة.. قطعة!
وانطلق من داخلي طوفان
العاطفة
النائم..
ورحت أنظم مشاعر الندامة
الفياضة..
فلتسمّها رحلة القلب الشريعة
أو سمّها حكاية النداء
والدعاء في البرية»[٧٣].

مكة والحرم والرمز الشعري

الشاعر محمد إقبال نموذجاً

مكة المكرمة لها مكانة في قلوب الأدباء والشعراء، وكل ذراتها لها في قلوبهم مكان، وهكذا وجدناها في قلب الشاعر ووجدانه، فهو دائماً متجه إليها، وإقبال يناجي ربه قائلاً:

«في ذلك البحر الذي ليس له ساحل
لا يوجد سواك دليلاً للعشاق
لقد أمرتني أن أتجه صوب البطحاء
رغم أنه لا يوجد سواك منزلاً!»[٧٤].

وهكذا مضى إقبال يذكر مكة والحرم وهو في موطنه، وفي خارج موطنه، حين كان في الأندلس، وحين كان في باريس، وفي لندن وحتى وهو يمضي في البحر بجوار جزيرة صقلية، وهو في فلسطين، وفي أفغانستان وغيرها، وإقبال يذكر أن أركان الأمة الإسلامية التوحيد والرسالة وأن حياة الأمة تقتضي مركزاً محسوساً، ومركز الأمة الإسلامية هو الحرم في

مكة المكرمة، واجتماع الأمة الحقيقي لا يكون إلا بقصد، يُقصد إليه، ومقصد الأمة هو حفظ التوحيد ونشره.

وإقبال ـ مثله مثل شعراء شبه القارة ـ يستعمل الرمز، فشعراء شبه القارة يستعملون الرمز بكثرة حتى قبل أن تصبح الحركة الرمزية عامة في أوروبا، وإقبال أعطى الرمزية في الأردية والفارسية - وهما اللغتان اللتان نظم بهما دواوينه الشعرية ـ اتجاهات جديدة وقوة حتى إنه يمكن القول بأن الحركة الرمزية هي من الملامح البارزة الجلية في فن إقبال.

حاول إقبال أن يوجد ـ بمساعدة رمزيته ـ خيالاً مرئياً للعالم غير المرئي، ورمزية إقبال لا تعطي شكلاً أو جوهراً، إلا أن امتزاج الحياة وتفتحها واضح فيها، فهي لا تسمي الأشياء بل تشكل غلافها الجو أو ظلالها، ويكمن جمال رمزية إقبال أساساً في حقيقة أنها تختلف تركيباً عن تلك التي استخدمها الشعراء الآخرون في الأردية أو الفارسية، فالرمزية عند إقبال نراها في:

إبراهيم والنمرود، موسى وفرعون، حسين ويزيد فهذه قصص تراجيدية عرضية للاجتهاد الديني في تاريخ البشرية، لكنها عند إقبال تدل على النضال الأبدي بين الخير والشر.

وبالمثل نجدها في محمود وأياز فهي تدل - تاريخياً - على العلاقة بين الملك وخادمه، لكنها عند إقبال تدل على العلاقة بين العاصمة وعمالها، وبين الراعي والرعية، وهكذا يستخدم:

كليسا وحرم (أي الكنيسة والحرم) للتعبير عن المسلم وغيره أو دير وحرم وغيرها من تعبيرات رمزية، مثل (پيران حرم) أي شيوخ الحرم، أو (پير حرم) أي شيخ الحرم، وحتى كلمة حرم فهي عند إقبال بمعنى مسجد تارة، وبمعناها المعروف أي الحرم المكي تارة أخرى.

فحين أنشئ مسجد في باريس رأى إقبال أن هذا نوع من المكر والخداع، فالذين أسهموا في بنائه هم الذين خربوا الشام والبلاد الإسلامية الأخرى، وهو يطلق على مسجد

باريس كلمة الحرم، و يميزه أولا بالعنوان الذي وضعه، وهو (بيرسس كي مسجد) أي مسجد باريس، ثم بكلمة المغرب في النص الشعري يقول في ديوانه «ضرب الكليم» بعنوان مسجد باريس:

يا نظري لا يخدعنك فنه
للزور هذا الحرم المغرب
وليس هذا حرما لكنه عنـ
ـــد الفرنج للغرام ملعب
قد أخفت الإفرنج روح موثن
في صورة من حرم تكذب
إن الذي شيّد هذا موثنا
دمشق من عدوانه تخرب[٧٥]

وإقبال لا يستخدم كلمة شيخ العربية مع الحرم لكنه يستخدمها هكذا شيخ كليسا أي راعي الكنيسة، ويستخدم أيضاً أمير قافلة ويعني به النبيﷺ، ويستخدم أيضاً مير كاروان بنفس المعنى السابق، كما يستخدم نشاط رحيل أي حركة الاستعداد لمضي القافلة، كما يستخدم أيضا كلمة حج وأذان، وسجود، وقيس وليلى، والمحفل وغيرها استخداماً رمزياً.

فالمؤمن والمسلم عند إقبال يعنيان الإنسان المثالي، أو الكامل، بينما الكعبة والحرم و(أحياناً الدير) تعني الهدف، والكعبة أيضاً تعني تعاليم الإسلام، أما السجود فيعني الجهد العنيف، والصلاة تعني الرغبة المحرقة، أما الأذان فيعني الدعوة إلى الجهاد والعمل[٧٦].

وإقبال لا يستخدم كلمة شيخ العربية مع الحرم لكنه يستخدمها هكذا شيخ كليسا أي راعي الكنيسة، ويستخدم أيضاً أمير قافلة ويعني به النبيﷺ، ويستخدم أيضاً مير كاروان بنفس المعنى السابق، كما يستخدم نشاط رحيل أي حركة الاستعداد لمضي القافلة، كما يستخدم أيضا كلمة حج وأذان، وسجود، وقيس وليلى، والمحفل وغيرها استخداماً رمزياً

وقد قلب إقبال معاني الكثير من الألفاظ التي شاعت في المدرسة الأدبية الكلاسيكية واستخدمها

استخدامات رمزية، وعلى سبيل المثال كلمة خودي الفارسية كانت تعني الإنطواء، فصار معناها احترام الذات أو الذاتية، وكلمة الفقر استعملها إقبال يرمز بها إلى السيطرة الأخلاقية وهكذا(٧٧).

وقد أثار عدم فهم شعر إقبال وبخاصة ما ترجم منه إلى اللغات المختلفة اختلاف الآراء حوله، فإذا ما تكلم عن الحرم فهم الجميع أنه يقصد الحرم المكي، وإذا ذكر الملا بمعنى الشيخ، أساء البعض فهم قصده، رغم أن إقبالاً كان يرمز إلى الوضع السيء للمسلمين في الهند ومعظم بلدان العالم الإسلامي وإقبال يقصد بالحرم المسجد، ويقصد بشيخ الحرم أولئك الذين غرقوا في التصوف والدروشة وجمع النذور، وأخذوا يشجعون الناس على ترك العمل والسعي، ويردون كل مصيبة إلى التقدير دون تفكير في اتباع سنة رسول الله وإطاعة أوامر الله وهكذا يقول:

«أيها المسلم سل قلبك، ولا تسأل الملا:

لماذا خلا الحرم من رجال الله؟»

ويقول عن الدراويش المتصوفة:

«نالوا بالوراثة كراسي الأولياء

استولت الغربان على أوكار النسور

شيخ الحرم هو الذي يأكل الثمن سراً

ثمن الأثواب المسروقة،

غطاء أبي ذر، وكساء أويس المرقع

ووشاح فاطمة الزهراء».

وهذه أشعار تعبر بدقة عن دهشة الشاعر من أحوال المسلمين الذين غفلوا عن أصول دينهم، مستخدماً الرمز في شعره:

«أليس أدهى من نهاية العالم
أن ترى أهل الصين يلبسون ملابس الإحرام
بينما أهل مكة ينامون في البلد الحرام؟»

وإقبال هنا لا يقصد أهل مكة بل يشير بهذا التعبير للمسلمين، وهكذا يقول:

«لقد رأيت «سيد الحرم»
عمله ليس فيه حرارة
وكلامه ليس فيه تفكير»

فسيد الحرم رمز لإمام كل مسجد

والحقيقة أن كمال شعر إقبال ـ كما يذكر الدكتور يوسف حسين[٧٨] ـ كان في رمزيته حيث تكون «الكناية أبلغ من التصريح» فهو لم يتخذ طريق الرمزية الغربية، ولم يتجه في كلامه إلى الغموض والألغاز، ومع هذا فأدبه لا يمكن أن يفهم منفصلاً عن الحياة أو بعيداً عنها، وكان إقبال يحاول بدوره أن يبين ويشرح بأسلوب بياني جميل الإيماءات والإشارات، فقدرته على أداء مطلبه بالاستعارة والكناية قدرة خارقة، وهو لم يترك الأسلوب الأدبي التقليدي، لكنه بأسلوبه أظهر نشاط الحياة وحركتها في الأسلوب القديم أو في التراكيب القديمة للغة التي كادت أن تضيع من ذاكرة الناس.

ويقول عن الدراويش المتصوفة:
«نالوا بالوراثة كراسي الأولياء
استولت الغربان على أوكار النسور
شيخ الحرم هو الذي يأكل الثمن سراً
ثمن الأثواب المسروقة،
غطاء أبي ذر، وكساء أويس المرقع
ووشاح فاطمة الزهراء».
وهذه أشعار تعبر بدقة عن دهشة

وبينما يرى الدكتور سيد عبدالواحد أن النزعة العامة في إقبال هي الرمزية، يرى الدكتور يوسف حسين أنها في الرومانسية التي كانت في الأصل رد فعل للفلسفة العقلية،

وأن إقبالاً مثل جوته مزج بين الرومانسية والكلاسيكية، بينما يرى الأستاذ مجتبى مينوي[٧٩] أن إقبالاً من أصحاب الألم الرومانسيين، يحرك ويثير الشوق والرغبة في قلوب الآخرين، لكن إقبالاً لم يكن رومانسياً في معانيه، تلك المعاني التي أشاعها كل من هيجل وشوبنهاور ونيتشه وغيرهم من أصحاب المذهب الرومانسي.

لا شك أن إقبالاً استفاد في رمزيته من الأدب العربي مستفيداً من شعر الشعراء ومن القرآن الكريم والحديث النبوي، فرمزيته هذه تجعلك تحس بالقوافل تمضي في الصحراء متجهةً إلى الحرمين، وتشعرك بقيظ الرمال، وبمناظر النخيل في منازل الطريق، والرمزية واضحة في استخدامه لألفاظ مثل زمزم، وحراء، وكعبة، وحرم، ولات، ومنات، وطواف، وعرفات وغيرها، وقد ابتكر إقبال بعض التراكيب مستخدماً هذه الألفاظ، ليعبر عن أفكاره، واستخرج البعض من القديم المنسي، وجعله في حالة جديدة، وتراكيبه الرمزية هذه تمثل حجر الأساس لقنطرة الإلهام الشعري عنده، فلا يمكن استبدال لفظة بأخرى، لأن هذا سيؤدي إلى انهيار القنطرة، وبعبارة أوضح انهيار التعبير الفني، لأن التعبير بالنسبة للتجربة الشعرية يعتمد على الألفاظ والتراكيب، أو المصطلحات التي تشكل جوهر الفكرة ذاتها.

لا شك أن إقبالاً استفاد في رمزيته من الأدب العربي مستفيداً من شعر الشعراء ومن القرآن الكريم والحديث النبوي، فرمزيته هذه تجعلك تحس بالقوافل تمضي في الصحراء متجهةً إلى الحرمين

فإقبال يخاطب شيخ الحرم أكثر من مرة وفي أكثر من ديوان، يقول في ديوانه بال جبريل حين كان فيزيارة لأفغانستان ووقف عام ١٩٣٢م يقرأ الفاتحة على قبر الحكيم الشاعر سنائي الغزنوي[٨٠]:

«في الشرق وفي الغرب تلمست الحانات
لأخفف عن قلبي آلام الأشواق
لكني في المشرق لم أظفر بالساقي
وسلافة أوروبا تنكرها الأذواق
كم عزت ملتنا في الدنيا بفقير
يرتاع له كسرى ويدين له قيصر
هو للحق سلاح هو للشعب ضمير
ما عادت تشهده إيران ولا كشغر
الحرم القدسي به شيخ المحراب
كعبته الأموال وقبلته الدخلاء
ويلاه لقد باع لهم دلق أويس
وبساط أبي ذر وخمار الزهراء
إسرافيل شكاني للحي القيوم
ما الحيلة في شعر نغمته إرعاد
قد أحدث زلزالاً وأثار الأحرار
وتحدى بالمحشر من قبل الميعاد
قال: أنظر وتأمل أحداثاً وخطوباً
كالمحشر أهوالاً في دنيا الإسلام
للبيت المعمور سعت كل الأقطار
وبمكة أقوام في البطحاء نيام»[٨١].

وفي ديوان ضرب الكليم وبعنوان (اى پير حرم) أي «يا شيخ الحرم» يرمز لعلماء الإسلام والصوفية المسلمين[٨٢] يذكرهم بواجبهم الديني وهنا يرمز إقبال لمفهوم رسالته بطريقة الخانقاه (الزوايا والتكايا) أو حياة الدعة والخمول التي جعلت المسلمين يخضعون للاحتلال والعبودية، وجعلتهم يخافون الموت و يرتعدون من تصور الجهاد.

«يا شيخ الحرم!
اترك التقاليد البالية
واترك طريق الخانقاه
وافهم مغزى أغنية أسحاري (افهم رسالتي)
يحفظك الله! احفظ شباب الأمة
علمه درس العزة (أي أطلعه على حقائق الإسلام)
حتى يتمكن من إصلاح عيوبه، ويحفظ ذاتيته.
لقد جعله التعليم الغربي يلهث خلف الدعة
وخلف الراحة، بل جعله مثل المرأة

تـطالع طـول الوقت في المـرآة للتزين

فعليك يا شيخ الحرم أن تـوجد فيه صفات الرجولة

وأن تجعله يميل إلى العمل والجد والاجتهاد.

لأن شبابنا ابتلي بالاحتلال منذ قرنين من الزمان

لهذا صاروا مكسـوري الخـاطر أذلاء

فعالجوهم بالقرآن والحديث

أسمعوهم أوامر الله ورسالة نبيه

أخبروهم بأنهـم إن نـصروا الله نصرهم الله.

لقد تأثرت بعاطفة محبة الأمة

فأوضحت مكانتكم ومقامكم،

فقابلوا عاطفتي هذه بجميل مـن عندكم

واخرجـوا مـن جـحوركم، إلى ميدان العمل».

وهكذا يتضح من هذه الأشـعار أن إقبالاً كان يقصد بشيخ الحرم علماء الإسلام والصوفية، وبخاصة عـلماء الهند ومـتصوفة الهـند، فـهو يـصرح قـائلاً، بأن الاحـتلال يجـثم عـلى صدورهم منذ قرنين، وهناك من ظهر يدعو لإبطال الجهاد والخضوع للذل، ولهذا خاطبهم إقبال بالأبيات السابقة.

لقد وهب الله إقبالاً قوى تخيلية سواء في ابتداع المعاني أو الخـواطـر، فالخيال عنده متنوع مما يخدم في تقوية التأثير العاطفي، والخـيال التـفسيري مثلاً عند إقبال نـابع مـن أن الشـاعر يدرك القيمة أو المغزى الروحي فيقدم موضوعه عن طريق صـفات تـكمن فيها القـيمة الروحـية، فشـعره الذي يتضمن كلمة الحـجاز و زمـزم يـلقي بـظلال أخـرى في ذهـن القـارىء فالحجاز أو زمـزم تـثير في الإنسـان الأحـاسيس التي تجـعله يسـتخرج الشحنة الإيمانية التي تمتزج مع وصف إقبال بعالم الدين الذي لا يفيد الأمـة، ولنقرأ هذا الشـعرالرمـزي بـتشبيهاته الجميلة:

«إن عالم الدين هذا لا يحمل همّاً

عينه بصيرة لكنها جافة لا تدمع

لقد زهدت في صحبته

لأنه عالم ولا هم

وأرض مـــقدسة ليس بهـــا زمزم»[٨٣].

إن النماذج الشعرية في دواوين إقبال الأردية والفارسية كثيرة جداً، ففي دواوينه الأردية مثلاً استخدم الحرم في أكثر من ٤٥ موضعاً، والكعبة في أكثر من ١٥ موضعاً، والحجاز في أكثر من ٢٥ موضعاً، وفي دواوينه الفارسيّة استخدم الحرم في أكثر من ٦٩ موضعاً والبيت الحرام أو بيت الحرام أو بيت الله في موضعين، واستخدم الكعبة في أكثر من ٢٩ موضوعاً.

ثم استخدم إقبال أيضاً زمزم مرة أخرى، يقول في ديوانه (بانك درا) أي صليل الجرس كلاماً يقول عنه البروفيسور سليم جشتي - شارح دواوين إقبال - إن إقبالاً يتندر على الحجاج الذين يعودون من الحج وقد حملوا معهم فقط ماء زمزم وتمر الحجاز، بينما كان يجب عليهم أن يعودوا حاملين هدية التقوى والطهر، وكان يجب عليهم بعد عودتهم أن يعيشوا حياة تجعل قلوب الآخرين بعد رؤية هؤلاء العائدين من الحج تشعر بعظمة الإسلام.

وهذا شعر من ديوان (بانك درا) من مقطوعة بعنوان (شمع اور شاعر)[٨٤] منها:

إن النماذج الشعرية في دواوين إقبال الأردية والفارسية كثيرة جداً، ففي دواوينه الأردية مثلاً استخدم الحرم في أكثر من ٤٥ موضعاً، والكعبة في أكثر من ١٥ موضعاً، والحجاز في أكثر من ٢٥ موضعاً، وفي دواوينه الفارسيّة استخدم الحرم في أكثر من ٦٩ موضعاً والبيت الحرام أو بيت الحرام أو بيت الله في موضعين، واستخدم الكعبة في أكثر من ٢٩ موضوعاً.

«اسم الكعبة على لسانك
لكن في قلبك رغبة في بيت الأصنام (لندن)
أنا لا أرى في عاطفة الحب (الشوق) لديك أي معقولية
إذا لا يوجد في قلبك رغبة في الرقي

(هنا الشمع تخاطب قادة الأمة)

وقلبك خال من عاطفة حب الرسول

فكيف يمكن أن يظهر في الأمة قيس؟!

(أي عاشقون أو فراشات)

أيها المسلم أيها اللؤلؤ المتلألىء

يا من تربيت في حضن الإسلام

كم هو مؤسف أن يخلو قلبك تماماً من عشق الرسول

يا إقبال! قومك نيام!

روضتك خربت!

من يسمع الآن نداءك أغنيتك

فلا محل لها الآن (أي أنها غير مناسبة)

ورسالتك لا معنى لها رسالتك بلا عنوان»[٨٥].

وفي ديوان الأسرار والرموز ـ وهو بالفارسية ـ صور جميلة استخدم فيها إقبال الرمز كثيراً منها:

«كم يريك العشق من صهبائه

فترى التقليد من أسمائه

أحكم العشق بتقليد الحبيب

لتنال القرب من رب مجيب

في حراء القلب فاقعد خالياً وإلى الحق فهاجر راضياً».

والشاعر يقصد بالتقليد تقليد الرسول ﷺ واتباع سنته المباركة[٨٦].

وفي نفس الديوان يخاطب إقبال المسلم ويشير إليه بالغزال، نفر من سواد الكعبة فخرج من الحرم فتمكن منه الصياد، أي خرج عن تعاليم الإسلام، ويرى أن الإنسان ينبغي أن يثبت في نفسه و أخلاقه وسننه، ولا ينسى مركزه فهو كالوردة ينتشر عرفها ويلتئم ورقها فإذا تفرق الورق فنيت، ونحن مسلمون، ولكن في أنفسنا وثنية من عبادة الهوى والخضوع لغيرنا، ويقصد بالدمى (جمع دمية) الإنجليز وما عندهم من مال ومناصب[٨٧].

وفي قصيدة مهداة إلى الأمة الإسلامية، وهي القصيدة الأولى في ديوانه نفي الذات (بالفارسية) يقول:

«ختم الله إليك الأمما بك حقاً كل بدء ختماً

كم تقي فيك كالرسل منيب

وجريح القلب رفاء القلوب

لك طـرف بـالنصارى سـحراً
وعن الكعبة أبعدت السرى»

ويـقصد أهـل أوروبـا الذيـن سيطروا على الهند وغيرها[٨٨].

وبـالفارسية أيـضاً، لكـن في ديوانـه الأخـير أرمـغان حـجاز أي هدية الحجاز يقول إقبال:

«ليس الحرم سوى قبلة القـلب والنظر

وطـوفه ليس طـواف السـطح والباب

فبيننا وبين بيت الله سر

لا يعرفه أيضاً جبريل الأمين»

وإقبال هنا يقصد أن الإيمان ليس بالحركات الظاهرة إنما هو أيضاً شيء داخلي ذاتي.

وفي قـصيدة لإقـبال بـعنوان (طـلوع إسـلام) يخـاطب فـيها فـتى الإسلام ويرمز إليه بطائر الحرم فيقول وما أجمل قوله:

«أعد يا طائر الحرم المفدى نشيد الحب للأقوام طراً

وحلق في فضاء الكون واجـعل جناحك من غبار اللون حرّاً»[٨٩].

ولا ينسى إقـبال الحـديث عـن غـار حـراء: يـقول في ديـوانـه (جاويدنامه) بالفارسية:

مدة في الغار ظل المـصطفى غـير آثار لذات ما اقتفى

وعودة إلى الحرم، والحـرم هـنا بمعنى مكة، يقول إقبال في ديوانه (بال جبريل) أي جناح جبريل:

«في اللهب العربي ألحان فارس

سر الحـرم (أي مكـة) وحـدة الشعوب

فكرة الوحدانية غائبة عن فكر الغرب

ذلك أن حضارة أوروبا ليس لها حرم»

ومكة عنده لها مكانة فهي رمـز للإسلام وتعاليمه جملة وتفصيلاً، ولهذا كتب نظماً نختم به هذه النماذج بعنوان (مكه اور جنيوا) «مكة وجنيف» جاء فيه إشارة إلى الحكمة القرآنية والحكمة الغربية أو حكمـة الفرنج، ليقدم للـعالم وجهة نظر الإسلام فيقول:

في هذا العـصر رغـم أن أفـراد الأمـم المخـتلفة صـاروا يـتلاقون

ويتجمعون أكثر من ذي قبل، لكن رغم هذا لم يمكن لهذا الأمر أن يحقق الوحدة الإنسانية، (فلا تزال وحدة البشر خافية عن الأنظار).

انتبهوا! إن هدف الحكمة الغربية (الإفرنجية) هو (إقامة عالم يضم أمماً متفرقة) وإشاعة الفرقة بين الأمم والإبقاء على هذه الفرقة عن طريق تقسيم الأمم إلى شعوب متقدمة وأخرى نامية.

وعلى العكس من هذا، فإن هدف الحكمة الإسلامية هو القضاء على جميع أوجه الاختلاف بين الأمم وإقامة مجتمع الأخوة الإنسانية، فكل البشر من أب واحد ولهذا فهم سواسية (هدف الإسلام إقامة أمة آدم).

فتعاليم الإسلام تعني أنه لا فضل لأحد على الآخر إلا بمعيار واحد هو التقوى، ولهذا فقد بلغت مكة المكرمة أي الإسلام هذه الرسالة إلى جنيف أي أمم الغرب، والرسالة هي أن جمعية آدم أفضل كثيراً من جمعية الأمم..

يريد إقبال أن يقول: فإن أردتم حقاً خير البشرية، خير بني آدم فأسسوا بدلاً من جمعية الأمم جمعية آدم، أي حاولوا أن تقضوا على جميع الامتيازات التي وضعت للتفريق بين البشر وبين الشعوب وبين الأمم المختلفة، وأقيموا المساواة في العالم، وهو ما يضمن الأمن والأمان وفلاح البشرية وسعادتها، وإقبال هنا يشير إلى عصبة الأمم التي تم تأسيسها بعد الحرب العالمية الأولى، فالهدف يبدو طيباً في الظاهر، لكن الهدف الأصلي كان استعباد الأمم الضعيفة والسيطرة عليها، وقد عبر إقبال عن هذا أصدق

تعبير حين قال عام ١٩٣٣م:

«لا أعلم عن هذه العصبة الأممية سوى أنهم جماعة من لصوص القبور أقاموا جمعية لتقسيم القبور».

وصدق ما قاله إقبال، فلم تتمكن لا عصبة الأمم ولا هيئة الأمم من تحقيق الأمن والسلام في العالم، ذلك لأن أعضاءها لا يعترفون بالمساواة بين الأمم، وهو الأمر الذي يقوم عليه أمن العالم(٩٠).

هكذا عبر الشاعر عن تجاربه الداخلية، وأوضح عن مكنونات نفسه عن طريق الرمز والكناية، وفي حالة الوجد الأدبي يكون الرمز والكناية أبلغ ما يمكن لبيان التسلسل النطقي لأفكار أديب فيلسوف مثل محمد إقبال.

«لا أعلم عن هذه العصبة الأممية سوى أنهم جماعة من لصوص القبور أقاموا جمعية لتقسيم القبور». وصدق ما قاله إقبال، فلم تتمكن لا عصبة الأمم ولا هيئة الأمم من تحقيق الأمن والسلام في العالم، ذلك لأن أعضاءها لا يعترفون بالمساواة بين الأمم، وهو الأمر الذي يقوم عليه أمن العالم

الهوامش:

(١) ذكر عطاء بن كثير حديثاً رفعه إلى النبي ﷺ «المقام بمكة سعادة والخروج منها شقوة» (الأزرقي ٢: ٢٢) وعن الزهري قال: إن النبي ﷺ قال لمكة: «إني لأعلم أنك حرم الله وأمنه وأحب البلدان إلى الله تعالى» (الفاكهي ٢: ٢٦١) وفضل الموت بمكة وفضل مقبرتها (قال رسول الله ﷺ: «من قُبر بمكة جاء آمناً يوم القيامة، ومن قبر بالمدينة كنت عليه شهيداً وله شافعاً» (الفاكهي ٣: ٦٨).

(٢) أنظر: عاتق بن غيث البلادي، فضائل مكة وحرمة البيت الحرام: ٢٣٢، دار مكة للنشر والتوزيع ط أولى

١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.

(٣) حكم مدة ٢٢ سنة (٧٩٢هـ ـ ٨١٣هـ / ١٣٩٠م ـ ١٤١٠م) وكان له إسهامات عظيمة في نشر الإسلام وتعاليمه، وتطبيق الشريعة الإسلامية وخاصة في المحاكم والقضاء ـ حاشية أنظر مهر علي تاريخ المسلمين في البنغال المجلد الأول أ ص ١٤٢، جامعة الإمام ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م.

(٤) وقد قام ابن أخيه عبدالكريم بن مجد الدين (متوفى ١٠١٤هـ، ١٦٠٥م) باختصار تاريخ قطبي.

وللكتاب أكثر من طبعة واحدة في مصر، وأخرى في سنة ١٣٧٠هـ، ١٩٥٠م وهناك طبعة ألمانية في لايبزغ قديمة ترجع إلى عام ١٨٥٧م باهتمام المستشرق فردينند أو ستن فيلد ـ أنظر مقال للدكتور محمد إسحاق محاضر بقسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية بجامعة دهاكه.

(٥) مهر علي، المصدر السابق: ١٩٨–٢٠٠.

(٦) مقال الدكتور إسحاق ص ١٢٧–١٢٨.

(٧) أنظر النص في مهر علي مصدر سابق ص ١٤٣–١٤٤.

(٨) تقع الگجرات شمال ولاية بومباي، وجنوبها يطل على بحر البحر، وأشهر مدنها أحمد آباد العاصمة التي أسسها أحمد شاه توفي ٨٤٥هـ ـ ١٤٤٢م، كانت لها صلات تجارية وثقافية في الماضي مع البلاد العربية.

(٩) أنظر د. عبدالمنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند: ٢٠٧، ط دار النشر للجامعات، بيروت.

(١٠) المصدر نفسه: ٢٠٨.

(١١) هكذا ذكر الآصفي في تاريخه، أنظر نزهة الخواطر ٤: ٣٥٦.

(١٢) النمر، مصدر سابق: ٢١١.

(١٣) تمكن من حكم البلاد وهو كبير السن لكنه مع هذا قام بتطوير البلاد وتحديثها وشق الطريق وحفر القنوات، وأقام أربطة ومساجد على الطرق، وغرس الأشجار المثمرة للمسافرين، ولا يزال بعضها قائماً حتى اليوم.

(١٤) عبد الحي: نزهة الخواطر ٤: ١٥٥.

(١٥) النمر: ٢٥٢.

(١٦) جاء في دائرة المعارف الإسلامية بالأردية أنّ سورت تعرف باسم باب مكة، اسم مدينة أطلق على عاصمة المديرية وتقع عند مصب نهر بلتي عند الطرف الجنوبي للنهر على مسافة عشرة أميال من المصب، ذكرها الجغرافي الشهر بطليموس (مات ١٥٠م)، ويعتقد أن المدينة الحالية أسست في بداية القرن ١٦م، دائرة المعارف ١١: ٤٤٨.

(١٧) النمر، د. عبدالمنعم تاريخ الإسلام في الهند، بيروت، المؤسسة الجامعية ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م ص ٢٦٨.

(١٨) وهي إحدى أربع أميرات تولين الحكم في هذه الإمارة، وتولت الحكم بعدها شاهجهان بيغم التي تزوجت من العالم المعروف صديق حسن خان، وقد كتبت سكندر بيغم عن رحلتها للحج كتاباً بالأردية، ترجم إلى الإنجليزية، وكتب عنه الدكتور أحمد عبد الرحيم نصر (أستاذ بقسم الاجتماع الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا)، ورقة قدمها في ندوة حج العام الماضي بعنوان «كتابات ورحلات النساء للحج دراسة في رحلة حج نواب اسكندر بيجوم بهوبهال (١٢٢٠هـ / ١٨٦٤م)».

(١٩) أنظر كتاب India wins its freedom، الصفحات الأولى.

(٢٠) الدكتور عبدالمنعم النمر أبو الكلام آزاد: ٦٣.

(٢١) دائرة المعارف الإسلامية بالأردية، المجلد الأول: ٩٩.

(٢٢) أنظر تفصيل ذلك في مقال الطاف علي قريشي بعنوان نهر زبيدة، فكر ونظر، اكتوبر ـ ديسمبر ١٩٨٢م، محرم ربيع الأول ١٤٠٦هـ، إدارة تحقيق اسلامي إسلام آباد، وأنظر أيضاً ما جاء في كتاب الدكتور النمر أبو الكلام آزاد: ١٤٢ وما بعدها، وهذا ملخص ما ورد في المصدرين السابقين.

(٢٣) أنظر د. النمر، أبو الكلام آزاد: ٦٣.

(٢٤) المصدر نفسه: ٦٣.

(٢٥) آئينة أبو الكلام آزاد، مجموعة مقالات رتبها عتيق صديقي، انجمن ترقي اردو هند فرع دهلي، ط أولى نوفمبر ١٩٧٦م، مقال مولانا عبد الماجد بعنوان مولانا آزاد، جند يادين، أي بعض الذكريات عن مولانا آزاد: ٥٠، وما بعدها.

(٢٦) المصدر السابق: ٥١.

(٢٧) أنظر أبو سعيد بزمي، مولانا آزاد اقبال اكيدمي لاهور مكايب شبلي جلد ١ـ٢ اعظم كره ١٩٢٧، وآئينة أبوالكلام، آزاد، رتبها عتيق صديقي، ط أولى، دهلي ١٩٦٧م، وبالعربية سمير عبدالحميد، الأدب الأردي الإسلامي، والنمر، أبو الكلام آزاد، ط القاهرة.

(٢٨) ماهنامه الرحيم حيدر آباد، نوفمبر ١٩٦٤م، نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية الأردية ١٢: ٩٨٤.

(٢٩) أنظر محمد سرور، مولانا عبد الله السندي، لاهور ١٩٤٢م، وأيضاً عبدالرشيد ارشد، بيس برى مسلمان: ٤٠٢-٤١٢، لاهور ١٩٦٩م، وأيضاً خطبات ومقالات مولانا عبد الله السندي، رتبه محمد سرور، لاهور ١٩٧٠م.

(٣٠) أنظر سيرة مولانا محمد يوسف لمحمد الثاني الحسني، نقله إلى العربية سعيد الأعظمي الندوي.

(٣١) أنظر مقال دكتور محمد إسحاق: ١١٨.

(٣٢) الكتاب المذكور: ١٨٠، نقلاً عن الدكتور مقتدى حسن أزهري في مقال له بعنوان الدر المنثور، كاروان أدب، العدد الخامس، إبريل ١٩٩٥م.

(٣٣) أنظر مقال الدكتور معين الدين، ترجمة ثروت صولت إلى الأردية في مجلة فكر ونظر، عدد ٨ مجلد ٧ ذي الحجة ١٣٨٩هـ ـ فبراير ١٩٧٠م، إدارة تحقيقات اسلامي إسلام آباد، بعنوان فرائضي تحريك، أي الحركة الفرائضية.

(٣٤) أنظر مهر علي، مجلد ٢ من تاريخ المسلمين في البنغال: ٢٥٠.

(٣٥) المصدر نفسه: ٢٥٢.

(٣٦) لمزيد من التفاصيل أنظر ما كتبه الدكتور مهر علي: ٢٧١، وما بعدها.

(٣٧) مجلد ١٢ المادة المذكورة.

(٣٨) مهر علي ٢: ٤٠٥.

(٣٩) دائرة المعارف الإسلامية الأردية مجلد ١٢.

(٤٠) مهر علي ص ٣٠٧.

(٤١) د. معين الدين، فرائضي تحريك، ترجمة ثروت صولت، فكر ونظر، العدد٩، المجلّد ٧، مارس ١٩٧٠م.

(٤٢) مهر علي: ٣١٤.

(٤٣) د. معين، فرائضي تحريك.

(٤٤) المصدر نفسه: ٦٧٣.

(٤٥) مهر علي: ٣٢٤.

(٤٦) مهر علي: ٣٤٨، وما بعدها.

(٤٧) مهر علي: ٣٣٥-٣٦٠.

(٤٨) أنظر عبد الله ملك بنكالي، مسلمانون كي صد سال جد وجهد آزادي، (١٧٥٧م ـ ١٨٥٧م)، لاهور ١٩٦٧م.

(٤٩) دائرة المعارف الإسلامية الأردية، المجلد ٢: ١٣٧.

(٥٠) أنظر: ٣٢٤ بحث لـ:

Muin_ud_din Ahmad Khan, Sayyid Ahmed Shahid,s Campanion against the Sikhs. Islamic Studies vol.VII Dec. 1963 no 4 Journal of Islamic Research Inst. Pakistan.

(٥١) أنظر معين الدين أحمد خان، مقال في Islamic Studies Review No 4, 1967، بعنوان الطريقة المحمدية، دراسة تحليلية: ٣٧٥.

(٥٢) دائرة المعارف الإسلامية بالأردية ٢: ٧٤٩.

(٥٣) انظر قائمة أعدها ملحقاً لبحثه الذي قدمه في ندوة حج العام الماضي عن أدب الرحلة في شبه القارة الهندية.

(٥٤) سمير نوح، الجزيرة العربية في أدب الرحلة الأردي: ١٢١ وما بعدها.

(٥٥) مكتبة رشيدية لاهور سنة ١٩٦٦م: ١٩٢.

(٥٦) نشرها في حلقات في مجلته الأدبيّة اردو دائجست، يونيو ١٩٦٧م، وما بعدها.

(٥٧) سمير نوح، الجزيرة العربية في أدب الرحلة الأردية: ١٤٣.

(٥٨) أنور سديد، اردو أدب مين سفرنامه: ٥٣٥.

(٥٩) كان ينشر مقالاته في مجلة فاران الأردية.

(٦٠) طبعت سنة ١٣٧٤هـ. / ١٩٥٥م، وأعيد طباعتها سنة ١٣٧٥هـ. وسنة ١٣٨٥هـ. / ١٩٦٥م.

(٦١) سمير نوح، الجزيرة في أدب الرحلة الأردي: ٣١٨.

(٦٢) هو حضرت بابا فريد شكر كنج، توفي سنة ٦٦٤هـ. / ١٢٦٥م، عاش في البنجاب في عهد الدولة المملوكية الهندية، اشتهرت أقواله وأشعاره في عموم الهند، وتمثل أشعاره النماذج الأولى للأدب الأردي حين كان يطلق غ = على الأردية اسم ريخته، وله أشعار بالبنجابية أيضاً، أنظر حامد حسن قادري، داستان تاريخ اردو، اردو اكيدمي سنده كراتشي، ط الثالثة، ١٩٦٦م عن الطبعة الأولى ١٩٤١م..

(٦٣) سمير نوح، الجزيرة العربية: ٦٠٨-٦٠٩.

(٦٤) ولد في لدهيانه عام ١٣٣٩هـ. / ١٩٢١م، حفظ القرآن وبرع في قول الشعر متبعاً أسلوب الشعراء الكلاسيكيين: ٤٣٩، الجزيرة العربية في أدب الرحلة الأردي.

(٦٥) الرحلة: ٤٠.

(٦٦) الرحلة: ٨٩.

(٦٧) اشتغل بالصحافة في جريدة نداء الأمة التي كانت تصدر من لاهور، ولما تم دمجها بصحيفة نوائي وقت استمر بالعمل الصحفي، ثم انتقل إلى جريدة امروز، وبعدها انضم لهيئة التدريس بقسم الصحافة بجامعة البـنجاب، سافر للحج مع والدته سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م.

(٦٨) أنظر النص كاملاً في الجزيرة العربية: ٦٢٦.

(٦٩) ممتاز مفتي أديب و روائي وصحافي معروف، له مكانته في الأدب الأردي، توفي منذ عدة سنوات، أنظر من الأدب الباكستاني تفاهم المجلس الأعلى للثقافة بمصر، ترجمة سمير عبدالحميد، ٢٠٠٢م.

(٧٠) أنظر النص كاملاً في الجزيرة العربية: ٦١٧-٦٢٢.

(٧١) أنظر نماذج أخرى في سمير عبدالحميد، الأدب الإسلامي: ٣٥١ وما بعدها.

(٧٢) المصدر السابق: ٧٠٢-٧١٣.

(٧٣) لمزيد من النماذج الشعرية، أنظر الجزيرة العربية: ٦٤٣ ومابعدها.

(٧٤) أنظر أرمغان حجاز إلى الحق، الرباعية ١١٢، سمير عبدالحميد، المكتبة العلمية، لاهور باكستان.

(٧٥) عبدالوهاب عزام ترجمة ضرب الكليم: ٧٤.

(٧٦) أنظر بال جبريل، ترجمه عن الفرنسية عبدالمعين ملوحي، دار طلاس للنشر، ط أولى ١٩٨٧م.

(٧٧) نفسه: ٣٣.

(٧٨) دكتور يوسف حسين، إقبال، بالأردية، طبعة ١٩٤٤م: ١٣٨.

(٧٩) مجتبى مينوي، إقبال لاهوري، بالفارسية، ط لاهور: ٣٢.

(٨٠) كليات إقبال: ٣١٥.

(٨١) ترجمة الصاوي شعلان: ١٩٢ في أيوان إقبال، ط القاهرة اللجنة الباكستانية المصرية ١٩٧٧م، وأنظر ترجمة عبدالمعين ملوحي عن الفرنسية: ١٠٢.

(٨٢) پروفيسور سليم جشتي، شرح ضرب كليم، ط لاهور: ١٧٣.

(٨٣) سمير عبدالحميد، بحث بعنوان إقبال والعرب، مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٥، محرم ١٤١٢هـ: ٣٧٤.

(٨٤) أنظر كليات إقبال: ١٨٣، وسليم جشتي، الشرح: ٣٥٠.

(٨٥) سليم جشتي: ٣٥٦.

(٨٦) ترجمة عزام: ٢٢، ط المكتبة العلمية، تحقيق سمير عبدالحميد.

(٨٧) المصدر نفسه: ٦٢.

(٨٨) المصدر نفسه: ٧٧.

(٨٩) الصاوي شعلان، أيوان إقبال: ١٠٨.

(٩٠) أنظر كليات إقبال، ضرب كليم: ٥٢٠-٥٩١.